صنارة وانهار

رواية

كاظم حسن سعيد

١

(كان خطأ)،فكرة غامضة صادمة ..استغرق عشر سنوات ليفكك شفرتها ..ليلة عاشتها في غاية الذوبان والسحر الروحي فكيف كان خطأ ..وادرك انه يحتاج الى علم حفريات الروح وانواع الطبقات الروحية ليتفهم ما وراء ذلك .....

(كان خطأ) جملة مزلزلة اطلقتها هياء

١

اول صيد

انا الصياد الهائم على بساط الامواج الزرق والمخضرة والكحلية والمذهبة غروبا..استقبل فجري قبل ان تصحو الطيور

حيث السعفات تضم اجنحتها وندى الاعشاب يلامس الروح..تشرق بخجل ..فتسكب خيوطها النحاسية ..على جسدي..ثم تنغمر في الامواج عميقا.. (مرددا \وقد اغتدي والطير في وكناتها \ تركت الحراب للضباع..وادركت حركة التاريخ فلا استغرب من الجمود ولا استعجل التغيير..فقد تنام الشعوب دهورا..انا هنا وصنارتي وادوات صيدي ..تاركا للفكر ان يصفو وللروح ان تنتعش..اعطيتكم ظهري فقد بح صوتي ولم تبلغوا الوعي..

انا في الستين من عمري .. كان اول صيد ربما في السنة التاسعة ...اتذكرها جيدا ... كان بستان ابو اسحاق هناك والزمن قبيل الغروب قليلا .. جلست اسفل سعفات نخلة مرتفعة تقع في التقاء النهر بفرع نهير يقدر بخمسة امتار.. في راس الزاوية تماما ..السكون متحكم ساعتها وبدأت امواج الظلمة تحتل مواقعها بين الفسائل وشجيرات الرمان ، في الترع المتفرعة واغصان الريحان والاخاديد ومسارات النمل غير المتناهية واستعد ظل السعف ليتكثف هامسا لاشباحه التي تنطلق مع الظلمات بالاستعداد ....رميت البلد\خيط النايلون مع صنارة ورصاصة صغيرة تثبت الخيط في الطين \ ..المد مرتفع . لحظات واحسست بشيء يسحب يدي فسحبت ... سمكة بطول ذراع اتت لتشد الروح شدا برحلات الصيد التي لن تتوقف على مدى اكثر من ستة عقودٍ..

٢

(رياضي وأمرأة)

الدوبة تلتصق بضفة شط العرب ، ثابتة في قاع الطين ، تمتد طولا مسافة ثمانين مترا ...ارضية بعرض متر ثم يستقيم جدار حديدي لمتر وعشرين سم يحيط بها من ثلاث جهات ولان الماء يخرج و يتسرب اليها ويستقر فيها فهي تشكل شبه جزيرة مصغرة ... قبيل نهايتها جوار الضفة باربعة امتار تقترب مسافة خطوة من الدوبة الاخرى (الصارعة) التي اسميناها انا وصديقي ابو رافد ب(الدوبة الناصية) مستقر الصيادين المحترفين ... اتيت انا الصياد (سيف القيصر) مع حفيدي في السابعة من عمره الى الصيد صباحا .. الجو ربيعي والشمس شهية ... ولم يكن احد من الصيادين هناك ، الموج هاديء فرمينا الصنارات المطعمة مسافة عشرة او خمسة عشر مترا.. كنا نرتدي السراويل والقمصان وكان الطفل (كرار) الحفيد ذكيا بهي الطلعة كثير التحرك والاسئلة .كان البصر يمتد عميقا الى ان يتلاشى النهر في ضباب الرؤيا .. فيما يتطاير الغبار من اللوريات التي تفرغ حمولتها الحنطة في مخازنها بسايلو البصرة القابع امامنا .. نسمع همهماتهم واصوات غامضة

صائحة بين لحظة واخرى وصوت المحركات والمنبهات الثقيلة المزعجة .

فجأة تقدم بخطوات واثقة .. اشهب ، جسم رياضي ، خطوات عسكرية ..شاب وسيم .. يصحب امرأة اقرب للبدانة سمراء متورمة العينين او هذا ما تراءى لسيف القيصر ،فلتت من يده ومضت للحافة كمن تحاول الانتحار فهرع اليها وامسكها من يمناها وسحها فاستقاما ثم جلسا على اسطوانتين صلدتين من الحديد .. كنا نشاهد ظهريهما .. جلسا ساهمين واجمين ، وربما الفتاة وحدها واجمة والرجل يمثل دور الوجوم .لا يظهر انهما يعيران اهتماما لوجودنا .. وليس هناك من علامة على سعادة يعيشانها .. ولا دليل على انهما مخطوبان او متزوجان . هي متلفعة بعباءة بارقة وهو بسروال رياضي حليبي وحذاء رياضي .. توقعه سيف لاعب كونفو او كراتيه وهو لا يدري كيف رأى او توقع رغم المسافة بينهما بان عينيه عسليتان .فجاة سحب الخيط فجره بقوة ، سمكة كارب (سمتي) قدر ربع كيلو واثناء صخب وبهجة الصياد وحفيده التفتت الفتاة يسارا وشاهدتهم ونظراها ..كانت الاصباغ على الوجه تلمع تحت خيوط الشمس وظهر عليها ارهاق وربما لم تنم كفاية .. فيما كانت خلفيتها الواسعة كاملة الاستدارة ..

- (جدو هل رأيت انها ضربت الولد كفا فلوى يدها وضربها راشدي) كان يخاطب جده وعيناه عليهما ، وهو يبتسم .

عند تلك اللحظة كف جده القيصر عن الاغضاء عنهما باعتبارهما عائلة تتنزه .. خامره الشك وترسخت فيه الظنون وشرع يراقب تحركاتهما.

فجاة وضع الشاب المبايل لصق اذنه متلفنا بحماس (الان تاتون فورا)... قالها بعدما وقف فتمشى مبتعدا مترين عن الفتاة ..

بعد لحظات وصلت سيارة الشرطة وترجل منها شرطي بدين رث الملابس واخر طويل القامة واثق مهندم ، كلاهما ببدلة زيتونية ..

قلت بصوت مرتفع (هل وشي بهما احد ، غريبة ان ارى نجدة ، فسيارة الشرطة منذ عام لم تمر من هنا)... يظهرانها سمعته فالتفتت اليه وحدجته بوجه جامد دون ان تنم منها حركة واحدة .

الشاب الرياضي وصل اليهما ودخل سيارته البيضاء واخرج اوراقا او اضبارات ... ومضى بها وهما يلتحقان به الى خلف السيارة ووضعها على جسد السيارة وتوقعته يوقع وهو يشرح وهم يصغون او يجيب وهم يسألون ..

نهضت الفتاة وسحت جسدها الثقيل ... الرجلان لم ينظرا اليها ، أهو الخجل ؟

بعد لحظات صعدت قرب الشاب واخذ احد الزيتونيين يؤشر له ليستدير ومضت السيارة جنوبا على ضفة النهر الترابية المرتفعة فيما توجهت عجلة الشرطة لجهة معاكسة.

٣

الصياد ابو ايوب

في الجو المثلج العاصف..لا احد يتجول او يطل ولا ظل ظل..

كنت وحدي اصطاد بالشص والخيط(البلد)..لا شيء سوى صهيل الامواج..وهيمنة الوحدة والسماء المهددة..

هناك بين صف نخيل شاهق تجاوز سبعين عاما..ظهر في دشداشة وسترة غامضتي اللون ..بين الرصاص والسواد..وهو يثبت قبعة سوداء على رأسه ويحمل كيسا اصفر مصنوعا من خيوط النايلون ..غالبا يستخدمه الصيادون لحفظ ادوات الصيد او السمك.. زادت سترته الطويلة من قصره ..تخطى الخمسين..صودرت ارض اجداده مقابل امتار محدودة منحت ليستقلها منزلا..

(من هذا المتدروش الذي يتحدى مثلي العواصف ويتقدم ..وهل هو صياد او مستعطي او رجل مجهول..هل هو حيدر.. اوابو سلام الصياد السبعيني صديقي..الذي عطبت جلطة احدى يديه ..ذلك ابيض..وهذا الذي يتقدم نحوي شديد السمرة). ..فجأة ينحدر لارض تقع خلف جسر صغير اقيم عليه ناظم للماء..انه نهر (الجز) الذي يقع على ضفته منزل ابو محمد جاري اخو ابو مزهر والذي يتفرع منه نهير يصب في مسطح مائي واسع مزدحم بالاعشاب الطويلة والقصب الاخضر ..

سدرة وتهبط بك الارض فتستوي فتظللك سدرتان..وارض مستوية..النهر يتدفق اليه الماء عبر انبوب واسع..تتدافع فيه المياه

من شط العرب في بقعة كانت تسمى [الگودي] ....(وهو مرسى اسمنتي متغلغل في الماء ..حيث كان يمر قطار قادم من الهند.. وتنقل منه اسلحة لموقع عسكري بريطاني. عبر زوارق صغيرة تتجمع هنا.)....\ ما يزال الجداران المتوازيان اللذان يحدان الگودي قائمين.. حوالي قرن وهما وسط قسوة الامواج صامدان ...

انهيت جولتي وقد صدت سمكة كبيرة وجمعت الخيوط والصنارات ولملمت بقية اشيائي..وغادرت موقعي ..رأيت ظهره يواجهني وهو يتناول ما يشبه المخضرات تحت شجرة النبق..التقيته بعد ان تغديت وعدت وعرفته انه الصياد الامهر < ابو ايوب>..كان قد نصب خيوطا عدة وانحنى مركزا يرقب \ نگرة \ السمكة...تأكل...قلت له بعد تحية (اذن انت من رأيت ..هناك قرب النهر الصغير ..كأنك تتناول طعاما..؟)..اجاب نعم..[وجدت - طرطير- بين الحجر وقلعت شيئا منه وتناولت].. اذن انت تحب بساطة الحياة وعفويتها؟؟..اجاب..(اتابع نشنل جغرفك..واستفيد من تلك المعلومات..).

وهو يقلد صوت هرم تسمعه بين فترة واخرى[[السلام عليكم]..من يسمعه اول مرة قد يرد التحية متلفتا حيث لا احد.فيما يجيب هو مبتسما على صوته (وعليكم السلام)..... وقد يقهقه.

ـ ابو ايوب انت قديم وتعرف اسرار المحلة ... رويتها لعشرات فلم اجد تفسيرا هل لديك تحليل ؟ ورويت له قصة الشاب الرياضي والمراة الغامضة المتلفعة بالعباءة .

ـ هذا من ضباط مكافحة الاجرام .. وهذه اخوها يتعاطى ويبيع حبوب الكبسلة وهؤلاء يستخدمونها للفراش ... اعرفهم جيدا .

٤

اغماء

على طرف السدة الساتر الترابي المتصلب جوار الشط اقام له منزلا ..في البداية كان يمنع الصيادين من العبور من جانب المنزل الايمن الى الدوبة ليصطادوا بعد اسابيع احاط موقع العبور بشرك واغلق به ثلثي الدرب للدوبة.وتجرأ فاغلق بشرك الطريق للدوبة الاخرى المجاورة ...كنا نشاهد عائلة بايدي بناتها المراهقات قصبات صيد وهن في حركة قلقة يتنقلن من موقع لاخر مع صيحات وضحكات تصل بخفوت لنا كنا نراقبهم ونحن على الدوبة (الصارعة) على بعد ٢٥٠ مترا .ومع اشتداد وباء الكورونا وبعد فترة امتناع عن الصيد لثلاثة اسابيع فكر ت ان اقصد النهر لاصيد في موقع لا ازدحام فيه ولا تلامس .. ورغم ان النهر اقل عمقا هنا فقد اتخذ له اقصى موقع على احدى الدوب التي تبعد مسافة كافية عن البيت .. يجتاز نباح الكلاب التي تدرب على عدم الخوف منها في قرى وليالي مهيجران بابي الخصيب .. ويهبط من السدة الساتر مترين ويجتاز نبتات شوك واثلا حديث النمو وبقعا مائية ويعتلي فيتقدم شمالا عكس المنزل ويستقر...هناك على اليمين رسى زورق مرتفع كبير كتب عليه (قمر بني هاشم)

(اين اهل الغيرة والحمية ... تعالوا الحاجة امنا طاحت)، كان يصرخ في باب المنزل قريبا من الدوب التي منعوا الصيد عليها ... قلت لصاحبي (انا لا اذهب فوباء الكورونا لا يرحم)..

ورأيتهم يحملونها بمندر نوم ووضعوها على الارض قبيل سيارتهم الخاصة ..

لكن الشاب ظهر يستجير مرة اخرى ويصرخ (تعالوا انقذونا الاهل كلهم سقطوا اين اهل الرحم وييكم لححكونا).

(موتة موتة .. هيا اليهم) قلت وتقافزت مع صاحبي .. تجمع هناك عدد من الصيادين وبدانا نسحهم او نحملهم بالبطانيات الى سيارات الصيادين .. كان ابنهم الاصغر يضحك ويبكي معا بلا شعور ثم فقد الوعي ... وانتبه واحد منا الى دخان كثيف يتصاعد من غرفة الاستقبال فهرع ليطفيء المولدة ..

هجر البيت لاسبوعين .. حين سالت ابنهم الاصغر الذي ساعتها كان يبكي ويضحك قال (كلهم تعافوا سريعا الا الحاجة امي بقيت فترة اطول تعاني ضيق التنفس .. وما حدث اني قست ضغطها واخبرت اخي في المشفى ان ياتي لنقلها للطيبب وحين وصل كنا جميعا في حالة اغماء بسبب دخان المولدة والابواب المغلقة).
سنسمي هذا المكان انا وصاحبي لنميزها (دوبة البيت).

٥

ابو مزهر

على الضفة من بعيد رجل مسن بصعوبة يخطو ترافقه امراة سمراء تبدو طويلة القامة يتقدمان على ضفة النهر يلتقطان حطبا من متيبس السعف وشظايا الاخشاب هي تشجعه وهو يسعى بصعوبة وبين بضع خطوات واخرى ينحنيان ليلتقطا من على التراب المتحجر ما يستعر به التنور وربما يلتقطان اشياء اخرى ...رايتهما وانا اصطاد على ظهر الدوبة كنت اراه فجرا منحنيا بين الترع حيث كثافة الاعشاب والقصب الفتي.. يحش غاطسا بين حفر الماء غارقا بعالمه عن الدنيا .. ان كان قريبا يسمعني احييه ، غالبا لا يسمع وقد بلغ من العمر خمسا وثمانين سنة .. يقود عربة يدوية من الحديد ذات عجلة واحدة لكنه يتوقف ان صادفته ارض مرتفعة فلا يقوى على دفعها وهي محملة بالحشائش .. ويظل منتظرا احدا يعينه ...

- مرحبا حاج ابو مزهر

نظرني بعيون شبه منطفئة

- انا جاركم الجديد

- حقا انا حاج ... قصدت بيت الله في العام الماضي يا عمي .. كان لدينا ماشية كثيرة فلا نحتاج لبنا او زبد ...

كثيرا ما ترى المراة التي معه وهي تبحث عنه

- الم تر ابو مزهر

- فاقول لها لا ، لكنه لا يضيع : اضيف مبتسما

- اخاف عليه لكنه لا يستقر .. لا يعرف الا ان يعمل

انها بنته ام سلمة في الخمسين .. متخشبة الملامح نحيلة طويلة سمراء شاهدتها في ظهيرة صيف وهي تفرد عباءتا وتلمها .. تتقدم عشرين مترا وتعود لباب منزلها ثم تتقدم ، حركات متشنجة وهي تصيح (اتركوني انهم هجموا عليّ وليس عليكم)..لم تكن المناطق الريفية النائية المغلقة قد اعتادت على تدفق الرصاص،وكان عدد من الرجال باعمار واحجام مختلفة ينظرونها ويحاولون ان يدلوا بدلوهم في القضية بدشداشاتهم وطاقياتهم والكوفيات \ ربما بعضهم اقرباؤها \الكنها تكرر الصياح ((انهم قصدوني))ويظهر ان لا احد يعرف ان يتصرف بمثل هذه الواقعة .... قيل تشاجر ابنها مع اشرار..

لقد صعق رجالها والجيران من الرجال من الموقف المر والغريب الذي وضعوا فيه ... كنا سمعنا قبل ذك اطلاقات من بنادق كلاشنكوف .هذه المراة لم تتشاجر طيلة حياتها ويمنعها الحياء من رفع او اطلاق صوتها ... فجاة تدفق رصاص على منزلها (هم

دكوني)... وساعرف كيف ارد عليهم ..لكنها كلمات تضيع في جو مشحون بالسخرية ..

بعد عام سمع ازيز رصاص ونواح .. لقد ودع منجله ومضى ابو مزهر الى جوار ربه.

ابو محمد اخو ابو مزهر الاكبر فهم اربعة اخوان فلاحين ... افتح شباكي فارى بستانه الصغير مخضرا بالزرع :لهانة ،ريحان ونعناع لوبا وفجل شجيرات معدودة من السدر: اثنتان منها متيبسة، تغريد لبلابل وضجة لعصافير وقد يمر بالبستان طير مهاجر فيستقر على بضع نخلات هي كل ما تبقى من بستان كبير كان يمتد حتى ضفة النهر ..الان يقع بيته اخر البستان من البلوك على ضفة نهر فرعي من شط العرب (نهر الجز)...تظهر فيه فتاة محتشمة تلتقط النبق او شدات من النعناع ، اختفى اسبوعا فعلمت انه اصيب بمرض .. ظهر بعدها رايته من الشباك في يوم مطير فهرعت اليه...قلت حدثني ابو محمد كيف كنتم تزرعون ؟كان طويل القامة تجاوز السبعين يشد وسطه بقطعة قماش خضراء على دشداشته البنية .. طويل الوجه هادئا .. فحدثني وعيناه تقتربان من الانطفاء :

(جئنا لهذه الارض عام ١٩٤٨ قبل ثورة الزعيم قاسم بسنوات كانت النخلات بصفين على ضفة شط العرب تتمكن من التقاط ثمرها بيديك .. على مقربة من الدوبة التي تقصدها للصيد وحدثت فيضانات متكررة هنا كانت بنايات لثكنات الهنود فحطمناها وشيدنا بها سدا .. هذا المكان كان غنيا بانواع الاشجار لا ترى الشمس لكثرة اشجار العنب كانت الفيضان يغزونا شتاء وتزداد الارض

خصوبة في الربيع حيث تحتل ضفاف الانهار الاسماك الصغيرة العذبة (البياح) وعليها يلعب (الشلك) وهو يفترسها ..

٦

الاصرار على الهش

مرقط وزنجيان ،ثلاثة كلاب اقرب الى طباع البوليسية ،سطح بلا رواق ، نرجس امرأة متزوجة عطشى لعصر الغرباء...هذا الجسد المزود بطاقة بركانية و الاضلع الستيل وتلك الروح التي تخطت حقول الرهبة وخرافة السمعة .. تتدثر بلون خمري وشعر استعراضي وعينان تمطران شهوة وشهية .تنتظر الليل بصبر نملة لتلج مرجل الصهر باجسادهم النهمة فاذا الهش ينحر الامنيات (اهش بها على غنمي) ترددها كثيرا وهي تثرم البصل لزوج متفحم المشاعر ومتثلج همه يطور الكرش ويضخم جثة النقود .

- ((الّا اهش)).. كان يحدث صاحبه مبتسما وهما يصطادان حتى بعد منتصف الليل في رصيف لتفريغ السفن .. ((الّا اهش)).. كان الهنود يرطنون ويعملون بجد وجهد واخلاص لا احد يضم رأسه الجميع يقاتلون .. وكانت الرافعة تحمل اكياس التمر من الشاحنات لقلب اللنج العتيق .. حاول قيصر الصياد ان يجاملهم

فتكلم جملة هندية حفظها طفلا وجملتين فارسية ومفردات انكليزية لكنهم لم يستجيبوا كان الحذر داؤهم المستحدث من العراقيين .احسه وهو يعتلي سلم الحديد من ارضية الرصيف للزورق ويخبيء قنينة الخمر بلباسه الداخلي مقابل كيس تمن اعطوها لرجل الامن احسه يعلن بصمت عن انتصار وكرنفال ..غطوا التمر بحرص بسجادات من النايلون الملون الثخين وقيدوه بقوة واتقان وهم يرطنون ويتصايحون ويتقافزون ... فلما انتهى عمل الشفت الاول وانطلق الثاني فاخذ احدهم يغرز المسامير بمطرقة مدربة على خاصرة اللنج عندها هرعوا لهواتفهم وانزوى كل احد بعالم سري عميق ..في اللحظة التي هبط فيها اللنج بالجزر مسافة مترين حتى قاربت حافته مستوى الرصيف. هناك تعكر وتوحل الماء وظهر القبح فقد اهمل الميناء وتعطلت رافعاته الالمانية من زمن بعيد وظهرت مساحات الطين المسوّد المتعفن في صميم الارصفة .

عندما كرر جملته التي تميتك ضحكا (الا اهش) .. كان الرصيف خامدا حتى الكلاب والقطط آوت للهجوع وحدهما الصيادان والقمر يسهران وقد تدفق الهزيع الاخير من الليل المضيء .. ذهبوا لاحلامهم المفزعة ودخلوا حروبا وفاقات في احلامهم ومرارة غدر وخيانات .. اتريدهم يحلمون بالازهار ،،، بقبلات نارية على رقبة حبيب .. بجلسة استرخاء في حديقة مع رذاذ مطر وفنجان قهوة ... لا اعتقد ... فهم يسمعون اصوات الذئاب في نومهم وهجمات الوباء وسخرية القدر من اصرارهم .

ـ ولماذا تهش عليهم الكلاب كلما قصدوها من حديقة شبه مظلمة خلف المنزل ؟!

ـ لانها تكرهنا ..

لفوا خيوط البلد وراكموا اغراضهم في مكان واحد استعدادا للرجوع وقصدوا الشباك ليسحبوها من الماء بمكان اخر وحينما اكتمل كل شيء انتظرا يأتي صديقهم المسؤول ليقلهم للبوابة ...خيوط الشمس شرعت بالسيلان على الامواج الزاخرة بالاسرار .. القى نظرة على العتلات والرافعات والمكائن الالمانية اليابانية المعطلة ... القى نظرة على طحالب مكاتب الاحزاب هناك حيث يتم تراكم الثروة .. كان فنجان القهوة ما يزال بيده والهنود واصحاب الشاحنات يغطون بنوم ابدي فسأله :

ـ لو تركتها ترتاح بهم فهم ثيران لم تدجن وهي خبرة

ـ فضحك : حتدري دعتني يوما مساومة)كلي لك فقط اتركهم يصلون(..... لكني اغفو على طرف السطح واصر اهش كلابي عليهم .. لن ترتاح وانا هنا ...

٨

٧

سايلو

سايلو البصرة من الهياكل الإرتكازية الأساسية لجميع محافظات العراق كونه المصدر الرئيس لخزن وتصدير الحبوب المحلي منها والمستورد،

وُضِعَ حَجر الأساس لهذا المشروع في العهد الملكي سنة / ١٩٥٥ / وتم تنفيذه وإنشاؤه في فترة حكم الرئيس عبد الكريم قاسم عام/١٩٥٨ / حيث ساهمت في بنائه كبرى الشركات العالمية المساهمة، فمن ناحية الهندسة المدنية قامت ببناء الهيكل الخارجي للسايلو وملحقاته الشركة الأمريكية ، ومن الناحية الميكانيكية كان لشركة (بولر) فيما قامت شركة (سيمنز) الألمانية بتجهيزه من الناحية الكهربائية، وَلِما تتمتع بهِ تلك الشركات المنفذة من رصانة عالية وخبرة كبيرة في هذا المجال انعكس ذلك على متانة البناء وقدرته على المطاولة والصمود طيلة اكثر من ستتة عقود

"الطاقة الإنتاجية والتخزينية القصوى للسايلو تصل إلى/ ١٦٥ ألف طن/ ويحتوي على ١٠٢ مخزنا - - تكون على شكل حلزوني تتراوح سعة الواحد منها من - ٧٠٠ - إلى - ٨٠٠ - طن فضلا عن المخازن النجمية وعددها - ٣٠ - مخزنا سعة المخزن بين ١٤٠- -إلى ١٦٠- - طن".

امام السايلو في الضفة الشرقية من شط العرب هناك دوبة غرقت غطست وتثبتت في الطين الا ان ثلثها بقي طافيا جوار صف النخيل الذي وصفه ابو محمد حيث تجري ربيعا الاسماك الصغيرة بكثافة اسميناها انا وصديقي ابورافد (دوبة التاير) تمييزا عن دوب اخرى قريبة ...راس مثلث من الحديد علق فوقه اطار عجله نتسلقه فنكون على سطحها ..عندما تتحرك الاليات ويتطاير الغبار وتسمع الصياح الغامض من بعيد عبر الضفة نعلم ان الساعة هي التاسعة صباحا موعد بدء العمل بالسايلو وتكون الشمس قد بدات تبث انذار قسوتها وغالبا نلم في هذه اللحظة خيوطنا نسحبها من النهر ونعود للبيوت .

قبل ولعي بالصيد كنت اهتم بصيد الطيور وفي مرة كنت امسك بمصيادتي ورميت فسقطت الخرزة الحجرية من المصيدة جوار وجه المسؤول الحزبي (نادر) فانبني بهدوء (كدت تفقدني عيني) فخجلت ... تذكرت هذا يوما وانا اصيد وحدي في الفجر على الدوبة ... دوبة السايلو كان الهواء منعشا وابو جعفر لم يات اما ابو ايوب فكان هناك على الدوبة التي تبعد ٥٠٠ مترا عني كنا نسميها (الدوبة الناصية).. يضع قبعة مستديرة على راسه ونظارات فقد كان يخشى وباء الكورونا .

نسب الاستاذ الانيق نادر مديرا للسايلو وتم اعتقاله يوما بتهمة الاختلاس فحكمت عليه محكمة الثورة بالسجن لثلاث سنوات

ومكث في سجن ابو غريب...وضعوه في الطابق الثاني المخصص للمعتقلين المسؤولين... ولم يكونوا يرتدون زي السجناء .. تحت ذلك الطابق زنزانات انفرادية يحرس بوابتها حارس .

٨الصيد في السيبة

اخبرني ابو ايوب بان شط السيبة تتوفر فيه الاسماك فقصدناها في احد الايام بعد شحته في منطقة الدوبة امام السايلو ...منطقة زراعية جنوب البصرة .. تلاشت فيها بساتين النخيل بعد الحرب العراقية الايرانية ..صاحبي واخوه يقود السيارة وتوجهنا في الصبح جنوبا قطعنا عشرات الكيلوات ثم دلفنا الى فرع وطرقنا احد الابواب ثم كرر صاحبي الطرق ...فظهر رجل بدشداشته حسير الراس مبتسما وصافحنا .... وبعد مجاملات عاد داخل المنزل وخرج يحمل فلينة بيضاء واسعة اكبر من عجلة التكسي

ترتفع عشر سنتمترات ... وبعد ان تعرف عليه قال اعطني اصبعك فمددت سبابتي فامسكها بسبابته والابهام وحاكى سحبا قائلا (هكذ تاكل سمكة السمتي هنا)..بعدها قال لصاحبي (سترى الشجرة جوارها هناك اربط الفلينة ... وثبتناها على سقف السيارة... ومضينا ... حتى وصلنا الضفة فقال صاحبي قبل ان نترجل (هذا الميدان يا حميدان)...ربطنا الحبل بصخرة كبيرة ودفعنا انفسنا ثلاثتنا وجذفنا قليلا بايدينا ..

بعد ساعة لم نصد سمكة واحدة فاقترح صديقي ان يعود مع اخيه للضفة ليصطاد بالشبكة وارجع انا وحدي على الفلينة الى عمق الشط ...كنت اشاهد زوارق تمر تحمل العلم الايراني ،بعد ٤٠ دقيقة تسعرت الشمس فسحب اخو صاحبي الخيط وركب معي، فلما توسطنا النهر اراد ان يرمي الصخرة التي تثبت الفلينة فانقلبنا في النهر ، غطست عميقا ثم عمت وامسكت بالخيط وجذفت حتى وصلت الضفة مجهدا تماما فيما كان صاحبي يجمع ما طفا من عدد الصيد البلاستيكية والامواج تتلاعب به وتنفخ دشداشته البيضاء .... ساعتها ادركت باني فقدت اغلب لياقتي وان للعمر شروطا وبصمات .

٩

نهر الرباط

من الموقع الذي كدت فيه ان اقلع بمصيادتي عين استاذ نادر قصدت بشصي وعجينتي المفورة نهر الرباط كنت طفلا وقتها مررنا على ماكنة السوس واستدار بنا الشارع يمينا نظرت الى النهر حيث في مرة علقت صورة ابدية بذهني لصياد اصطاد سمك الشانك تحت الجسر ، عبرنا بيت المدير لم اكن انتبهت الى جمال بنته الشقراء فائقة الجمال ...واستقرت بي الخطى امام معمل الطحين حيث يمتد منه انبوب يقذف بقايا الحنطة مع الماء وحيث كان المكان زاخرا بالاسماك..

كان صاحبي يثبت قطعة قماش بيضاء صغيرة ليصطاد الشلك فهذا النوع من الاسماك الذي كنا نسميه (ابو عليوي) يلتهم أي شيء ...لم نكن نبالي بشظايا الزجاج على الضفة فان نزلنا النهر وجرحنا نعالج الدم بالطين ونمضي ...بعد سنين ستندثر ماكنة السوس ويشيد النظام مكانها دائرة للمخابرات وعبر النهر تقابلها دائرة الاستخبارات فاصبح الناس يجتازون الموقع على حذر وتنطوي مرحلة الصيد هنا . بعدها تقدمنا غروبا وصدنا تحت الجسر حيث علقت لافتة كتب على بياضها بالاحمر (خطر .. كيبل كهرباء) مع رسم جمجمة . هذا المكان لا يبعد كثيرا عن البستان

الذي اصطدت فيه اول سمكة رسّخت بروحي كسحر هواية الصيد... يفصلنا عنه نهر صغير ولانا مبكرون على تعلم العوم كنا نخشى اجتيازه .كانت لافتة التحذير تبعد عشرين مترا عن جدار معمل الكوكا كولا.. لهذا ترى الكثير من شظايا الزجاج وكثيرا من الصبية الجرحى ..

في مرة من اعلى الجسر قذف طفل بنفسه ولم يطف ... لقد استقر شيش حديد براسه الصغير وظل بعمق النهر هامدا ..في الربيع تمتليء المساحة العشبية بالماء حين يفيض النهر .. وضع احدهم شبكة طويلة في المكان وجاء صاحبي وخلص منها سمكة بنية وضعها بدشدشته المرقعة كنت انظره مبتهجا لغنيمته .

من هنا ، من جسر لافتة التحذير كنا نجتاز لمدرسة اوراس الابتدائية .. لم تكن موجة التغيير قد ازالت بقايا بساتين النخيل الشاهقة ولا صانعي الاسرّة ،كنا نتسلقها نقلع الطلع ونهبط دون مرود فرحين بعد ست سنوات ومن الطابق الثاني لاوراس وكنا نبصر من الشبابيك انهمار المطر والمحل الصغير سيسال استاذ (ماجد) من له خط جميل ؟ فينهض احد الطلاب فيملي عليه من دفتر بيده وهذا يكتب فيما بعد، بعد سنوات علمت بانه كتاب (فضة الورد) وقد طبع فاقتنيته ..

كان استاذ ماجد يرفض ان يتكلم طالب في درس اللغة العربية باللهجة الدارجة لهذا كان اغلب الطلاب في حرج ... كنت متفوقا بدرسه لكني اخطات يوما فانبني : (اتتاخر تدريجا تدريجا حتى تصبح مثل اخيك) .

كان الاستاذ له صلع مبكر بمقدمة الراس قصيرا ابيض البشر انيقا وهادئا ... ان هدوءه اهم ما يميز مظهره الخارجي صوته خفيض ومقنع حتى ليكاد ينقل لك عدوى الهدوء ....

بعد ثلاثة اعوام سمعت بيتا عنه

: (لا ترتكز تلك الصلاة عوالم \ كتب البقاء على المدار بقاء)... كنت اردد البيت لسنوات واذكره كلما حل استذكار للاستاذ ماجد... واحترت كيف اعرب البيت فهل \كتب \ فعل مبني للمجهول او المعلوم وهل القافية (بقاء) او بقاءا)... حتى التقيته في المرة الاخيرة وسالته فهالني انه لا يحتفظ بالقصيدة وانها كانت مكتوبة على قطعة مقوى بيضاء عند احد الادباء .. وفي مدرسة خاصة به لتعليم الانكليزية اهداني ديوانين له وكتابا ضخما بعلم الاجتماع .(ليس لي واهس بالقراءة لدي ضعف بالبصر وانت افضل من يستحقه) ... وعلمت انه مهتم بالعزف على العود وينأى بنفسه عن المنغصات .. حتى انه ورغم كونه ضليعا بالانكليزية قد ترجم كتيبا لقصص الاطفال فيما كانت امامه اهم المختارات من القصص الامريكية المعاصرة بالانكليزية وغيرها ..

١٠

حمدان

بستان صغير في منطقة حمدان بابي الخصيب مسور بالسعف والقصب المتيبس يسورها نهر من الجهتين ... بيت صاحبي البسيط من الطابوق لا يبعد عن الجهة الشمالية للنهر الا امتارا ...في ذلك العصر صنعنا العجينة فورناها بقدر وجلسنا نصطاد على ضفة النهر وصادف سمك وفير من النوع \الحمري \ صدنا صيدا كثيرا وكنا نرسل الخشنة من الاسماك بيد طفل فورا الى المطبخ فتفوح رائحة الغلي ونتنسمها ... انها مدة \ماء مرتفع \والشهر تموز...سياتي الليل وتنضّج امه الخبز بتنور الطين ... سوف نضرب على رؤوس البصل بقبضة اليد ومع المخللات والفلفل الحار تتفتح الشهية ، اسماك البصرة التازة طيبة المذاق .لكن الليل داهمنا ولم نعد نرى الطوافة ولا خيط الشص فاشعلنا نارا من السعف المتساقط .. ومن ميزة الاسماك انها تتجمع على الضوء ليلا ...ومكثنا ساعة بعد الاذان ثم انسحبنا ممسكين بقصب الشص مبتهجين .

في اليوم الاخر كنت وحدي في الجهة الغربية من البيت حيث يستدير النهر ..الوقت ضحى وعبرت نجلاء من الضفة الاخرى وقد سرقت عثق برحي ضخم .... وغطست في النهر حتى بدا الموج يلامس نهديها وهي تنظرني بلا مبالاة وتبتسم .. كانت رشيقة طويلة القامة ... شعر اسود من الحرير ونفنوف اسود ،

اهلها عشرة بيوت انحدروا من محافظة ذي قار واستوطنوا فاصبح اهل صاحبي وحدهم الغرباء بينهم ... لم يعودوا يذهبون مع بناتهم ونسائهم ل (الجرداق) لمعالجة التمر او تخليصه من النوى بل امتهنوا مهنا متنوعة او انتسبوا لدوائر الدولة ... ريفيون من مناطق نائية احتلوا المدن والارياف ، كان اخو صاحبي يراود نجلاء حتى استجابت فاختلى بها ذات ليلة غائمة في نهر متيبس ... وهي باكر.

١١

ضفاف شط العرب

على طول الضفاف تراهم يصطادون ، يرمون بخيوطهم للنهر لدى بعضهم ترامز ملئت بالعرق والثلج.. لم يكن احد يزعج احدا كان ذلك قبل اكثر من اربعين عاما وفي المناسبات الوطنية او الشعبية تتوافد العوائل والاهالي نساء ورجالا صبية ومراهقين ... مهرجان لا تتسع له الضفاف وامام شيراتون منصة من الاخشاب

تعتلي النهر نصطاد عليها حيث يكون سمك الشانك الفضي عذب المذاق وفيرا في هذا المكان ربما لتوفر الطعام الذي يجري مع انبوب الماء من فندق شيراتون ولوجود بقعة رملية او حجرية يفضلها هذا النوع من الاسماك.. وقد نسهر هناك للصيد حتى الصباح .. في مرة نام رجل بدشداشته وكوفيته البيضاوين الناصعتينن على الواح الخشب المتلاصقة التي تكون المنصة والخيط بيده وجذبت صنارته سمكة شانك فصحا واصطادها ، فالشانك من طبعه نهم يخطف الصنارة فجاة بقوة ...

الخشابة يتالقون ويضجون في الزوارق (بتروحلك مشوار ...التله يا ريت)...لم يكن التحرش الجنسي قد بلغ منسوبا مرتفعا كما اليوم ... فتتمكن مراهقتان او امراتان ان يجلن بامان على ضفة الشط .الظل وافر لوجود اشجار يمتد ظلها لخمسين مترا من النوع الذي يقاوم سخونة شمس البصرة ... لقد قطعوها كلها وزرعوا مكانها اشجارا بائسة لا توفر ظلا ولا ياوي لها الطير ...واصبح الناس يزورون الضفاف لبث الحسرات او ملحمة الحزن على شط نحر في وضح النهار .

مرة سيّجوا النهر بنصب لعشرات الضباط شامخين يشيرون بايديهم نحو ايران لكن بعض الاهالي بعد سقوط النظام ازالوها ليبيعوها في سوق الخردة .ولم يبق من النصب الا السياب الذي تعرض مرات لطلق ناري ونهبت الكتابة من قاعدته التي خفضت ونجا من موت محقق باعجوبة .

١٢

النهر الصغير

على بعد ثلاثمائة متر من منزلنا الذي يواجه بستان ابو محمد اخو ابو مزهر يقع ذلك النهر الصغير الذي الذي سميت المنطقة باسمه .. جذوع نخيل شاهقة بلا رؤوس او متيبسة او صعقت في سنوات الحرب ..اشواك واثل ،مخلفات البناء ، قمامة .. جذوع نخيل ممدودة في الطريق ، سعف متيبس متناثر .. انواع من الطيور القليلة التي كان يراها قبل خمسين عاما وعاد يتذكر اشكالها التي ارتسمت فترة الطفولة بعضها مهاجر .. بقي القليل من اثار هذا البستان تذكر به :سواق منتظمة وصفوف من جذوع او نخيلات ...قال لي ابو ايوب (انظر ... تلك نخلتان تصيد بينهما على ذلك النهر ان كنت تخشى الكورونا على الدوب) .

في اليوم الثاني تخليت عن خيوط البلد وحملت معي شصين وقصدت النهر فرايت سدرة ضخمة بثمر تفاحي يتساقط للنهر كلما تحرك الهواء ودجاجتي ماء سوداوين بمنقارين حمراوين ، تطيران بين القصب وتختبئان ... والقم شصيه بالعجين المتماسك ... هم في شهر رمضان فلما رايت الشمس تتذهب على الشط وكانت صائما غادرت النهر مع خمس سمكات صغيرة لكني مبتهج فقد عرفت بديلا عن الشط المزدحم وكنت اخشى العدوى ... فقد بدات الكورونا تفتك بالبلد .

في اليوم الثاني قصد ت هذا النهر مبكرا وجلبت قضبان حديد واسلاكا تثبت وقطعا من القماش لاصنع سترا لي من الشمس القاسية .. عبرت القنطرة الجذعية ..كان القصب والاعشاب كثيفة

فغطست في الماء لاقلعها فلا تعرقل الشص وكان من عادتي ان انظف واعتني باي مكان صيد قبل ان اشرع بالصيد ..

بعد ثلاثة ايام فاجاني ابو ايوب فقد استقبلني محتدما (انت قلت لابو جعفر وبن عمته ان ياتيا .. حذرتك منذ البداية وقلت لك : نحتاج الهدوء هنا فظهر البيوت تقابلنا .. هل تريد ان اغضبك الان او اخاصمك) ... صمت فقد كنت احترمه ولم اتوقع ردة فعله .. وكان رجل صياح..رعديد، غالبا يرى مستصحبا كلبا بوليسيا وله شارب كثيف قد منعه من الصيد (راياك وحدك فغضينا الطرف اما ان تجمع اناس امام بيوتنا فغير مسموح) ... بعدها قام الرجل بسحب القنطرة الجذع ورماها في الساقية ... وبالتعاون مع ابو ايوب تمكنا من استعادة القنطرة .(تشاجرت معه بحدة وعلا صياحنا)، رمقته متاسفا على ما جرى ولكن لم يكن لي ذنب بكل ذلك .

مرة رمق ابو ايوب صباحا سمكة كبيرة يتبعها ذكرها على الجرف يطفو ظهراهما بين القصب وترجان وهما تجريان الموج المخضر الساكن كانت الاسماك في موسم التكاثر...فصاح بي ارم لها الصنارة لقد وصلت قربك ... ورايتهما فاجتازتاني بسرعة ...نادرا ما تتناول السمكة خاصة الكارب الطعام في موسم التكاثر انها تنحدر نحو الانهار والمسطحات المائية الراكدة لتلقي بيوضها فيما تلحقها الذكور وترج الماء رجا اثر تساقط البيض .

١٣

ابو ايمن

ـ أي سفالة هو من يسرق يسرق من كادح فقير

نظر ت الى شعره المجعد وعينيه الواسعتين الطافحتين بالحزن وسمرة بشرته واجبته

ـ حتى اللصوص هناك في الخارج ان ارادوا السرقة فيقصدون تاجرا او مصرفا او شركة .. اما هنا فسمك يسرق من سمك .. او جائع يسرق من جائع .

وكان ابو ايمن قد اشترى من ايام بدلة خضراء من النايلون تتثبت على ملابسه بحمالتين على الكتفين تنتهي بجزمتين لتقيه من الماء عندما يصطاد بشبكته ...وقد اودعها في بناية تطل على الشط لاحد اولاد الشيوخ الذي يعمل فلاحا في ارضه المسيجة بالبلوك جوارها ..وحين يتوقف عن العمل ظهرا او غروبا يقود دراجته العتيقة فيقطع عدة كيلومترات الى منزله .ياتي صباحا فيشغل المولدة التي يضعها على الجرف المنخفض .. يمتد منها انبوب مدفون يخترق الشارع الترابي (السدة).. فلما ترتوي الارض التي انشئت حديثا يمضي بشبكته ليصطاد على الدوب .

في ظهيرة تموز كنت وحدي على الدوبة الصارعة (الناصية).. كانت ريح الشمال تلاعب الامواج ولا ظل هناك في المدى المنظور عدا ظلال تتقافز لاجنحة العصافير.. اتى ابو ايمن يحمل برميل صبغ وشبكة .. حيّاني مبتشرا معلنا عن اسنان صفراء وشفتين غليضتين ... وكان يحذر من الصيادين الذين يتضايقون او يمنعونه من الصيد قربهم .. لكنه يدري اني لا انزعج منه .. ربما يدرك اني احبه واتعاطف معه

ـ نرمي الشبكة مرات ...لعل سمكات نبيعها فنحصل على خمسة الاف او عشرة ... في هذه الظروف الصعبة ، لكنهم اقصد الصيادين يقلبون الدنيا وكأني احجز على كل الاسماك .. نحن شعب : ناس تكره ناس ... نظرته مبتسما ... وحين اكتفى قال : (لدي عمل سامضي وهذه السمكات لك) واخرجها من البرميل ...

١٤

الصيد شمال البصرة

على ضفة نهر مختف بين غابات النخل شمال البصرة ..حيث ابتدأت رحلة الصيد ..فجرا ترسم خطاك على دروب معشوشبة متعرجة مختزلة ..تفاجئك الترع والقناطر وشجيرات الخرنوب ويمسك الندى من الاعشاب الصغيرة .

فجرا الطيور لم تتمكن من مغادرة الاعشاش او الاغصان التي تحتوي كسلها والنعاس.. اغلب النخيل تعرض للمجازر..بلا رؤوس او متحجر الجذع او متيبس السعف..عدتك صنارات وخيوط من النايلون ومقص ومدية صغيرة ودلو لحمل الماء من النهر حين تجزر الامواج..زجاجة ماء وربما بعض التمر او الرغيف ..فانت في الصيد مقاتل بميدان لا تهتم بالترف..ولا باناقة الاشياء.وتحسها وهي تدنو للطعم وربما تعرف نوعها قبل رؤيتها من طريقة التغذية (النگر)..علّمتك خبرة طويلة..

. وهذا صديقك الرياضي شامل بعد ان اكمل دراسته في الكلية لم يجد عملا يليق به..فتأجلت كل مشاريعه..اما فرصة العمل التي قبل بها مؤقتا فلم يستلم درهما بعد مباشرة استمرت ٤ أشهر في احدى المدارس.. حسنا انه معك يستيقظ فجرا معك وبعد ان تركزا لكي لا تنسيا شيئا من الادوات تنطلقان للنهر... فجأة شجرة سدر مثمرة ..غريب ان ترى نبقا في شجرته صيفا..

تمر عليكما زوارق تقل نساء يتلفعن بالعباءات..و..محجبات..يخبئن الوجوه لحظة يمررن بنا..انهن يمضين للحش وبعد ساعة تعود الزوارق محملة بالاعشاب والعرق.

ليست المهارات وحدها من يحيلك صيادا معتقا ..بل الصبر المركز.. قد تمر ساعات وانت ممسك بالخيط وتنتظر!!.

١٥

الفزاعة

في تلك البساتين الهرمة ،. شمال البصرة ،، كان هناك بستان وحيد حي فقط ... اعتنى به صاحبه وسوره بسعف النخيل وجذوع الاشجار ومتيبس القصب ... قال صاحبى (موتى تحرس احياء ــ مشيرا الى اجزاء النخل المتيبس الجدار-).. كنت نتقدم قاصدين نهيرا لنصطاد في موسم اللا صيد ..لكنا نتسلى فقط ،، . تلال من الطين المتحجر يعكس كري الانهار .. زمان ... اثار لعجلات دراجات في التراب الندي .. ودرب يملؤه حجر الترابي المتصلب....ميتتة واقفة ... كانت اشجار النخيل مغدورة رحل عنها المهتمون وخانها الماء، ونهبت منها الوظائف الاياي السمر .. وهناك ما احترقت منها او تحولت لقناطر ..طالما انعشتها حرارة المرود واقدام الفلاح المتحجرة وظللتها طائرات تنفث عليها دخان قاتل الاوبئة ... اتصورها منتعشة كانت والانهار تجري جوارها .. وحين يسقون المخضرات تتنفس رئتها بعمق وتتعمق الخضرة في السعف ... الان لا احد يخسر نظرة اليها، ولهذا واحدة تلو اخرى تحجرت فماتت واقفة وبشموخ . ربما هي الان موطن للقوارض والزواحف ..فقط ذلك البستان يذكرك بجنة هذه الارض في عصرها الذهبي .. لكنهم وضعوا فزاعة ... بدلة لصبية بالوان حمراء وبرتقالية حادة.. انها معلقة بقصبة او سعفة .. مثل دمية

فاتحة ذراعيها لاخافة العصافير ... طفولة تعلن عن الرعب وقد ذكرني تناقض الوانها بالمدرسة الوحوشية التي ابدعها الفرنسي ماتيس..والتي انبثقت انطلاقا من التضادات اللونية والاشكال البشرية المشوهة الابعاد ....هل تزوجت الان صاحبة البدلة الفزاعة او ماتت مبكرا او تمكن منها السرطان او انها الان تحاور امها في مرح وحبور .وهل العصافير العراقية تخشى الفزاعات او انها اكتشفت اللعبة فلم تعد تبالي ؟!

١٧

١٦

الصيد< بيك اخطيتك >

الصيد يجر الصيد،في اليوم الثاني قصدنا ذلك المكان نفسه .، حيث نستقر على منعطف لشاطئ صغير ، خلفه تستقر بيوت حجبت بالقصب المتيبس والاعشاب الطويلة والسعف ... كنا نسمع

اصوات سباب وشتم وصخبا لضجة اطفال عابثين ، واصوات حناجر انثوية.تخشبت اجسادهن ورقت اصواتهن ..حين يرى شاب غض او مراهق امرأة يتوقعها هي هي ،بهذا الجمال الذي امامه ، ولا يدري بان مباحثات جرت واستشارات فردية او جماعية اجريت ومرايا ساندت والاف شركات التجميل تآزرت لتظهر امامه هذه الاثارة الانثوية .

لكنا هنا في الريف امام مشهد للنساء مختلف.. خاصة من جئن من الاهوار .. فالجمال عفوي والانوثة خشنها المردي وحش القصب والاعشاب وقسوة الطبيعة وتراجع الاهتمام بالجمال ... الآلية للانسان هي المتحكمة .

وبعد ان اجتزنا ، انا واحفادي دروبا متعرجة مسوّرة بالقصب والاعشاب والاشواك ومفروشة بتراب يحتفظ بالبصمات،وصلنا الى فضاء مفتوح : نخلات يتيمة او مقطوعة الرؤوس وشجيرات متهالكة ، وعلى اليسار درب ترابي طويل يمتد باستقامة، هنالك قرب بستان صغير نجا من مجزرة الجفاف والتصحر ، خطر في بالي وانا اتقدم احفادي الثلاثة وهم يحملون قصب الصيد واكياسا صغيرة ،ان استعيد حماس الطفولة وشيئا من عبثها ، فالتقطت عصا صغيرة وركضت فجأة وانا اشهرها امامي صارخا (قف ،، قف ،، قفوا .. اين هم) كنت اصرخ مكررا < اين هم >واحيانا ارفع العصا كمن يحاول ان يهوي على عدو حقيقي .. فجأة توقفت فبرز فلاح سبعيني يعتمر كوفية مزخرفة وحزاما ودشداشة ظهر من خلال البستان المسور بالاسلاك والجذوع والسعف ، وقال / (يا اخوة ممنوع ان تتقدموا هنا للصيد فالحاج صاحب الارض اوصاني بذلك،،) صدمت من قوله واخذت اشرح له بانا نتسلى بالصيد ولن نسبب ضررا او ازعاجا فقال بوقار (ما تقوله صحيح

لكن سيأتي سيئون ويقولون لقد سمحتم للاخرين يدخلون فلماذا تمنعوننا ،،حججه لا ترد بسهولة ولم ينفع معه تعريف بانفسنا وانا على صداقة مع صاحب الارض ونحن اقارب الحاج ابو احمد الطاعن الشهير الذي يعرفه .. قال <افهم ما تقول ، لكني اوصيت من صاحب الارض ان امنع > واضاف < تدري الانسان يصعب عليه سماع كلمة لا تسره .. وقد يحدث هذا >...مر بخيالي <رقصة البطريق>صبايا وشبان يؤدون الرقصة في مساحات شاسعة من العشب والورود لا احد يزعجهم ... الناس التي تهرب من صخب المدن فيمارسون ما شاؤوا من هواياتهم على السواحل والضفاف والبقع المفتوحة واطراف الغابات فلا احد يزعجهم او يمنع ..نحن هنا نكهّف حياتنا ... وقد يكون هذا الفلاح محقا .. فقد يحتل المكان شاذون او حيوانات بشرية .. او يتحول وكرا للسراق و لاصحاب الكبسلة والمخدرات .. قد تغتصب طفلات هنا او يذبح ابرياء ..علينا ان نتفهم مبررات الاخرين .

قلت له انا صحفي ،واريد ان استكشف سر الريف وما جرى في قاعه ،وانت بلغت السبعين ولك خزين من المعلومات.. حدثني كيف ذبلت هذه الاراضي وكيف كانت ؟!فاجاب ((كانت ارضا مخضرة تنتج انواعا من المخضرات والفواكه والشعير ، كنا نعشق ارضنا .. ننام بلا قلق ونصحو بحيوية اليها .. وفي مرة اختبرت اولادي فامرتهم ان يحصدوا بقعة شعير < مشارة > وحددتها لهم بوضوح وسألتهم هل عرفتموها جيدا فاجابوا نعم .واتيت في اليوم الثاني فرأيتهم قد حصدوا بمكان اخر فقلت لهم <انتم جهلة بارضكم >..واستطرد الفلاح الشيخ (يقولون الزراعة مهنة تفقر صاحبها، وارفض كلامهم فهي مهنة بامكان الفلاح ان يعيش منها لكنه رزق بطيء والجيل هذا فقد صبره وتراكض لرزق سريع واختاروا الوظائف الحكومية . ومع ندرة الماء تم اهمال البساتين

وهي في طريقها للانقراض .. كل بستان يجرف يجرف شيئا من روحي .. لكنى لا اترك بساتيني ،. اعشقها ،وانتقل بينها يوميا كجد يزور احفادا متباعدين بالسكن ،روحي تخضر مع المسحاة والمرود ، مع النبتة ارقبها تبذر فتنمو فتشق الارض وتصارع الطبيعة ...)

يظهر ان هذا الشيخ الطيب الفلاح لم يتكلم من مدة فاراد ان يستطرد لكني استاذنت بلطف لان الوقت داهمنا والصغار ملوا وهم يصغون حاملين شصوص القصب والاكياس ..

سارعنا الى النهر وصادف ان الجو بدأ يسخن قليلا ،والغيوم ترسم لوحات لا احصاء لجمالها .

وغطست الصنارات في الماء الساكن لا يقلقه الا زوارق صيد سريعة تمر في فترات متباعدة ..

في هذه الايام ، الاسماك تتخلص من بيوضها وتتحرك لتتغذى ،، انه الشهر الثاني من السنة . صدت او ل سمكة لامعة برزت فهتفت < بيك اخطيتك > وهي لازمة سمعتها من صياد ماهر وكلما صدت سمكة صحت < بيك اخطيتك> ..اي امسكتها او فلتت، حتى بلغ صيدي عشرين سمكة صغيرة ، ومع صوت المؤذن عدنا مسرعين قبل ان يداهمنا الظلام ، في تلك البقعة المنسية التي طالما اخضرت وازدهرت لمئات السنين .

في اليوم الثالث وقد اخبرني حضرة الفيس بان الجو سيكون صحوا والشمس رائعة .. كانت احدى الصغيرات قد نامت بحجابها معللة (نمت بحجابي كي لا أأخركم صبحا) ومع اول سعلاتي نهضوا نشطين اولئك الصغار الساهرون ليليا .. صحوا كأنهم في عيد .. لكن شيئا لم يذكره الفيس قد حدث : هواء يتحرك .. مع هذا صدنا

بعض الاسماك ... ولم يطل البحث فقد عثرت مع صوت المؤذن على شبكة عنكبوتية من الحديد ربما هي غطاء لمروحة كبيرة فوضعت عليها السمك واستعرت النار ..وعاد الاطفال يصفقون ويهزجون بوجوه زاخرة بالبهجة

١٧

الحاج سلمان

هذا هو قريبي الحاج سلمان .. ابسط رجل في البلد ... صوت خفيض وعينان ناعستان ،يختمر فيهما الخجل .. ابدا شعر ابيض مكشوف مجعد ودشداشة بيضاء ، ابدا لا يفارقه شصه والبلد ... يسكن في بيت ضيق جدا نهاية دربونة مخصرة في قرية كردلان لا يبعد كثيرا عن الشط ، ولان الصياد الماهر لا يعرفه الا صياد ... فهو اذن يمتهن الصيد كحالة صوفية .. لون من الطقس الروحي العميق ... حتى احلامه تكون بالصيد .. سواء رأى نفسه في الحلم على ضفة شط او نهر صغير او عميقا يتغلغل في البحار .. الصيادون اغلبهم يعرفونه ويروون عنه حكايات .. بعد تقاعده من دائرة البريد لا يشغله شيء سوى بعض التسوق والصيد .هو اقرب روحيا لابو ايوب : بساطة في المظهر والمعيشة وخبرة عميقة بالصيد ،خلافا لصديقي الصياد ابو رافد الذي هجر الشص

واستبدله بالبلد من عامين ... لكنهما معتقان صيادان منذ الصغر ... انه بسيط الايمان لكن تعبده خالص ومتجذر .

كنت في البداية منذ انتقالنا الى هذا الحي قريبا من ضفة الشط ، اصيد في نهر صغير تملؤه الاعشاب والقصب وبعض النباتات التي تنمو على الانهار ، تظلني شجرة سدر وارفة ... ذات المكان الذي اختلى فيه ابو ايوب ليتناول عشب الطرطير .. مر بي الحاج سلمان وكان هو من دلني على هذا المكان ..(على بعد ٥٠٠ متر فقط تنحرف عن الشارع المؤدي من بيتكم للشط وتعبر بناية الشيخ هناك نهر صغير يمكنك ان تصطاد فيه).قال لي ذلك بعد ان شيدنا المنزل هنا وانتقلنا اليه .. بعد اسبوعين ، ذهبت وحفيدي كرار اليه وطلبت منه ان يعد لنا شصين فقام بعد ان شربنا الشاي وولج في مجاز خلف البيت فرايته من الشباك يعالج القصب ويعود ..بعدها بايام اتى بكيسه من النايلون ما يستخدم لتعبئة السكر ... وبمزاج محب عمل لنا بهدوء شصين ...

ترجل من دراجته الهوائية ذات يوم ،وحمل كيسه الثقيل الذي يحتوي على عدته والبساط المزخرف الصغير الذي يجلس عليه ، والدلو وهو وعاء صفيح علق فيه خيط طويل لنقل الماء من النهر ... وبعد ما استقر جواري على ضفة النهر ، (قال انا مثلك قبل الشروع بالصيد ارتّب مكاني) كنت لحظتها اسوّي التراب المنحدر بالسكين تحت شجرة السدر لاعمل منه شبه كرسي .. قال (بعد ما تنتهي من الصيد اسكب على مكانك الماء ليتصلب الارض)..

بعد اسبوع مر بي الحاج سلمان وقال (اليوم حصّلت اسماكا انا وانصحك ان تقصد تلك الدوبة ولا تبق محبوسا عند هذا النهر فلعلك تصيد اسماك الكارب (السمتي).

اخذا بنصيحته كنت ذلك الفجر على الدوبة الصارعة (الناصية)... انه اول يوم اصيد هنا .... رميت الخيط على بعد اقل من خمسة عشر مترا ... وكان ابو فهد وابنه المتمتم جواري ... وكنت انظر باتجاههم ان صاد احدهم ورأيتهما يحاولان التكتم على صيدهم فيحاولون اخفاء السمكة ما استطاعوا ... انهم يؤمنون بالحسد ... السمك البلطي لا يترك مجالا للسمتي .. فهو نهم وقد يتناول الطعم قبل وصول ثكالة الرصاص الى القاع ... قيل وزارة الزراعة هي من استوردت هذا النوع النهم ، رديء الطعم ، رخيص السعر ... واصبح جزءا من البيئة يستحيل القضاء عليه ..حدثني بعد ايام ابو فهد (كنت بحارا ، اترك اكثر من بلد ملقم واعود بعد ساعة فارى اسماكا عالقة بها ، اما اليوم فيستغرب او يحدق الصيادون ان صاد احد). كان انيقا بدشداشته الناصعة ونظارتيه ... يأتي مبكرا ، في الفجر ، على دراجة نارية ، مستصحبا ابنه الكثير الحركات المتمتم ...

اجتزت على الدوبة التي تؤدي الى الدوبة الناصية بقايا كرزات ونساتل وبعض الكؤوس الانيقة شممتها فتدفقت منها رائحة الخمر، لا بد ان اناسا يسهرون هنا ليلا .. اول الفجر .. بعد الاذان بقليل وقد قررت ان اصطاد في صدر الدوبة بعدما مر علي ذات يوم احد الصيادين يحمل شبكة وقال لي (تقدم للامام فانت تصيد على ارض)وكان يقصد منسوب الماء المتدني... كنت لشهر اصيد هنا لان رأس الدوبة لا يحتمل اكثر من ستة صيادين ، غالبا تكون مزدحمة مع صخب وحركات جسدية .. اتضايق منها ...وما ان وضعت عدتي حتى تذكرت باني ربما لم اطفيء نار الطباخ ،

فنهضت سريعا مغادرا اثنين من الصيادين فقط ، وتقافزت فانحدرت الى جوار النهر الذي لا يبعد كثيرا وهناك قرب سياج من الاسلاك وتحت ركام اشواك خبأت عدتي .. وقصدت الدار متقافزا فقطعت المسافة للدار باقل من خمس دقائق .. ودفعت الباب فرأيت اني قد اطفأت الطباخ فعدت ... كان ذلك اول يوم اقصد الموقع العميق حيث صدر الدوبة الصارعة (الناصية) .ورميت خيطي وصنارتي في المكان الذي يصيد فيه ابو ايوب ... ورأيت عجينا مفورا مخلوطا بالقطن ... انه الطعم الذي يستخدمه ابو ايوب لتقوية العجينة فلا تنحل في الامواج .

ضجرت من الازدحام والصخب في مقدمة الدوبة واخبرت الحاج سلمان بذلك فقال (امام شقة الشيخ على بعد ١٥٠ مترا من الدوبة العالية (ام التاير) هناك حفروا نهرا عميقا اسفل الشط يمتد لخمسين مترا ، وهو مكان مثالي للصيد نظرا لعمقه فاستقر هناك .... في اليوم الثاني انتقلت اليه .. كان الظلام متسلطا وابو وسام السبعيني الذي عطبت يده يستقر بشصه على الضفة حيث النهر المتخفي الذي نصحني الحاج سلمان بالصيد فيه .. سلمت عليه فسر بوجودي فجلست قرب جذع نخلة يمتد موازيا الشاطيء .. هكذا كنت اقصد يوميا هذا المكان بعد صلاة الفجر تصاحبني جوقة من اصوات الكلاب التي لا اخشاها ،(شص او اثنان افضل لك من البلد) قال ابو وسام السبعيني ولم يكن بعد قد تقلد مصباحا ساطعا يثبته على جبهته .. قال ذلك اغراء لي لابقى جواره لان خيط البلد يعني ان اقصد المكان العميق على الدوبة .. اما الشص فابقى قربه على الضفة ، وكانت يده اليمنى قد عطبت اثر جلطة .وهو رجل يهتم بتنظيم الوقت ، في السابعة تماما يغادر كي يتوجه الى محله للعقارات ،(انا افضل حداد ايام زمان في المنطقة) قال... لكن صاحبي الصياد ابورافد علق على هذا القول فيما بعد : (ان شغله

غير متقن ، لقد جربناه حين كلفناه بصنع شباك لنا) . علقت صنارته فدعاني فخلصتها له من بين الحجر .

١٨

ابو رافد

قرب جذع النخلة المتهاوي والنهر المخفي تعرف عليه سيف القيصر،رجل رشيق اسمر البشرة تجاوز ستة وثلاثين عاما ، نادرا ما يستبدل ملابسه .. مرهف الانتباه ، يلتقط ادق الاشياء على بعد حتى ان القيصر قال له مازحا < لو صرت مسؤولا يوما ساوظفك في الاستخبارات> .

يقطع مسافة نصف اكثر من ميل من منزله مشيا ليصل موقع الصيد على الدوبة ..(سيتمكن من شراء دراجة هوائية بعد سنوات فيربطها بسلسلة بجذع نخلة اوباب مشبك لبستان).

تعرف عليه القيصر حين غادر الدوبة الناصية بسبب ازدحام الصيادين واستقر على الضفة مقابل النهر المخفي في الشط الذي نصحه الحاج ابو سلمان بالصيد فيه ،كانت جذعة قد تهاوت فاستقرت موازية النهر، هناك استقرت عدة صيده .. كان القيصر يقصد المكان الرابعة فجرا مرددا لامريء القيس (وقد اغتدي والطير في وكناتها) .. حيث تحاول الاشياء والترع والشجيرات والنباتات الشوكية وبعض الطيور ان تستعيد تشكلها وهويتها التي سلبها الظلام ، هنا التحق به ابو ايوب ، ومر منه جرذ فاتى بحجارة ليجلس عليها وحين داهمهما البعوض اتى ابو ايوب بشوك متيبس وبعض اطراف السعف واشعل نارا ليهزمه.. ذات يوم اتى اليهما الصياد حمدي يدعي انه خبير صيد رغم اكتشاف ادعائه حينما اصطاد سمكة صغيرة وتعامل معها كما يفعل الصيادون بالصيد الثقيل \ سحب وارخاء للخيط \. قال < هنا انتم تستقرون لتوفر صيد وفير> .. لم يكن صيدا وفيرا وانما وهمه كان ذلك ..كان ذلك قبل ان يعتزل الصيد ويتحول بقالا على منعطف باحدى القرى ، مصادفة رآه القيصر يوما وقال له (هذه الايام لا صيد) فاجابه بتوتر كمن يعد الصيد لعنة وبطرا (عساها ما تاكل) .. هي عبارة قريبة لاخر جملة اطلقها محمود قريب ابو رافد من اعلى الدوبة وهو يلف خيطه ويبرز غضونه (لن اعود .. يكفي ان اظل مادا يدي ماسكا خيط الصيد كشحاذ) .. واختفى من الشط لسنتين ..جيل يرى في هوايات حلا لانها تقتل الوقت ثم يصدمه احساسه باللاجدوى فيكفر بها .

نفس الشعور احتوى رجل كان يعمل في محل تصنيع الكرزات في المنطقة الصناعية .. يصل الدوبة قبيل الفجر ويرمي خيطه بعيدا مع طعم كروي كبير قاصدا صيد كارب بحجم ثلاث كيلوات واكثر ...بعد شهرين قال للقيصر لحظة وصوله الدوبة ، بدقائق <قبلك صدتها لاول مرة اليوم لكني فقدتها> ، فاكمل شاكر البدين (خلّصتها بالشبكة من النهر الا انها لثقلها كسرت ذراع الشبكة وعادت للماء)..

بعدها اختفى من الشط هذا الرجل الصبور للابد .

واختفى الرجل الاشيب ، لم يكن كبير السن لكنه من فعل الصدمات والفاقة ..صباحا ياتي بعد ساعات يبدا بطلب الطعم العجين من الصيادين ولا يمضي لمنزله رغم ان الشمس تطغي بعد العاشرة ولا ظل .. ويجتاز الساعات الصاهرة على الدوبة بدرجة حرارة تتجاوز اثنين وخمسين اجاب القيصر (لدي خبز وخيار فاتغدى او اقصد صديقا قريبا فاعود بعد الغداء لديه)..

ترى أي ظروف عائلية شرّدته واي مصير .. ولان للصياد اخلاق صيد فلا يبخل احد عليه بالعجين المفوّر الا رجل تجاوز الستين كان يؤنبه ويحرض عليه (لا تعطوه عجينا فقد تعود الكدية (ان يشحذ) ، الطلب طبعه) فقال له قيصر < لكنه عجين لا يساوي شيئا ولست تخسر) .. فرد محتدما <هؤلاء يشحذون فلا نشجعهم .. ياتون للصيد بلا طعم (غذاء الاسماك يعده الصيادون من عجين يفوّر) فيعتمدون على الاخرين >

ابو رافد نشأ فلاحا في بستان اجداده يحدث للقيصر < ايام الحصار كنا بوضع اقتصادي ممتاز ، نزرع فنبيع لم نكن نعاني من جوع كما الاخرين ،وكان صيدنا من نهرنا الصغير يكفينا ..اخر الضحى نصيد واخر العصر بعد ان ننهي اعمال الفلاحة)

يضيف متحسرا على زمن ذهبي كما يسميه (مضت تلك الايام لغير رجعة) .

حدث ذلك ابان الحرب العراقية الايرانية حين دخل الجيش والمدرعات بساتين شط العرب فهجّر اهله وجرفت او بعثرت اغلب البساتين ،لكن بستان ابو رافد نجى من المجزرة وظل مع ابيه وعمه يزرعون فياكلون من عرقهم ويبيعون ، من التمر والسلة الغذائية التي تجود بها ارضهم < احيانا ياتي المد في العاشرة مساء نضطر لانتظارها لنسقي .. لم نكن نعرف الصيد بالبلد ولا قصدنا الشط الكبير .. كنا اما نغلق النهر ونخبط الماء بالارجل فنصطاد اونستخدم الشص او <الوهار \شبكة مخروطية من اغصان السدراو الخيزران فتحتها العلوية ضيقة والسفلى عريضة \>.

١٩

رحمتي المتوتر

لابد لكل من رآه اول مرة مهما كان حسن الظن يتصوره يعاني من توترات نفسية تدعو الاخرين الى السخرية منه او التنمر و لهذا هو دائم الشكوى من متدوي فيه رائحة الثعالب ،يقال لمثل هذا رجل لا يستدل على جيبه > ... لكنه ذلك من فقر لا بخل .. اول ما التقاه القيصر على الدوبة الصارعة ذات المصعد الاطار العجلة.. قال ابو رافد للقيصر < كيف يحصل> رحمتي على عمل >...فنظره

وقال (يلتحق بفصيل مسلح) فضحك رحمتي .....(هي محتاجة مثل هذه الورطة).. قال مكشرا عن اسنان منخوره وعينين مصابتين بشبه حول رغم اصفرارهما..

كان يجلس القرفصاء بملابس متسخة مسودة.. خلفهما .. قال له رافد < اجلب معك شص لتصيد فانت هنا جالس جالس ! >، فلم يجبه وقال < هؤلاء المعممون يخدعون الناس .. هم منعمون ويدعونا للجنة >.. ثم اخذ يتعرض للسياسيين ، شاتما وقاذفا ويذكرهم بالاسماء.

فجرا جلس جوارالقيصر في يده عدة صيد لكنه لم يكن يصيد وحدث < دوما ابحث في القمامة لعلي اجد شيئا ثمينا .. اطمح ان اجد مغناطيسا اغطسه في النهر لعلي اقتني لقى واشياء ثمينة فالنهر حبلى بتلك الاشياء ... شاهدت فيديوهات لرجل يملك مثل ذلك المغناطيس باوربا وانا ابدا اتابعه واتمنى احصل عليه ... فتذكر القيصر بطل مائة عام من العزلة المسن الذي اقتنى مغناطيسا كبيرا من رجل غجري وظل اشهرا يمرره في النهر بغية الحصول على الذهب ..يتصدر الحلول الخرافية عنما تغلق الابواب بوجه احد .

رحمتي الذي هجّر اهله لايران بعد ان صفت بساتينهم المدافع وعاد بعمر ١٣ عاما لم يتقن اويتذكرالا جملا بسيطة من اللغة الفارسية ..حين يجلس قرب القيصر وجماعته يثير مواضيع ثقيلا وينفث التبرم والشكوى ويلعن كل شيء.. رجل ناقم على كل شيء .. لهذا يسخرون منه الصغار والمراهقون ويهرب من مجالسته الصيادون وهو يحس بذلك التنمر .

فقط القيصر عرف ما يجر في مساحة حياة هذا الرجل السرية المظلمة ..

فقد انشأ له منزلا هو غرفة من الجذوع والصفيح والقصب والاسلاك والاغصان على زورق مهجور في نهر متيبس قرب منزله واحكمه بقطع النايلون وباب من الصفيح .. مذياع قرب وسادته ولوحة امامه لم يعرف معناها ومبدعها ، هي لوحة الصرخة للنرويجي ادفارت مونك رسمها ١٨٩٣، وهي تلائم مزاجه المتوتر وكان يربي قططا وكلبين اسودين.. هنا يشتغل بادوات الصيد او يصنع كرسيا بسيطا او يحاول اصلاح تورج او لالة او مذياع معطوب.. ويلعن كل شيء.. رجل ناقم على كل شيء .. لهذا يسخرون منه الصغار والمراهقون ويهرب من مجالسته الصيادون وهو يحس بذلك التنمر .

فقط القيصر عرف ما يجري في مساحة حياة هذا الرجل السرية المظلمة ..

.. في ليالي الارق يتخيل انثى فيفرغ طاقته بالصابون او يكتب ابيات من الشعر الدارج او ينسج قصصا بلا قيمة فنية .. حساس لالتقاط الصوت على بعد مئات ويشير الى العجلات المارة والدراجات النارية وبعض التكاتك والسابلة .. فان سمع اطلاقات هبط لاسفل الدوبة .. لالتقاط الصوت على بعد مئات ويشير الى العجلات المارة والدراجات النارية وبعض التكاتك والسابلة ويخمن من فيها من ركاب اومزاج السائق < انظروه

يسير بسرعة لانه مطلوب وذاك صاحب الدراجة بلا ضوء هي بطولة يعدها السواق وذلك التكسي مر من خلفنا مرتين ببطيء ماذا وراءه ؟ >.. ذات يوم تشاجر بعض افراد عشيرته فوصلهم تهديد .. انها ايام محنة بالنسبة له فقد جلب شوكة طعام من الاستيل اثنى رأ سها لتكون سلاحه .. وظل يخشى من التاخر ليلا معنا فان طال

مقامه يمضي حذرا مؤشرا لعجلات ودراجات بخارية ... غالبا لا يقله احد في ذلك الطريق المظلم .

٢٢

انتفاضة تشرين

كان شتاء صيد حزينا .. كنا نرى سحب دخان تتصاعد من موقع مبنى المحافظة .. يتصاعد ويتوقف .. اصوات رصاص متقطعة ودخانيات .. انهم فئة من المحتجين بعدد قليل ترفع اللافات وتهتف

..احياء لذكرى انتفاضة تشرين الاولى، عوامل كثيرة منها الكورونا اوقفت سيل الاحتجاجات في العام الماضي ، الملايين تدفقت للشوارع والساحات مطالبة ب وطن . جرب العراقيين فنون الاحتجاج ورسموا صورا تاريخية للتصميم والارادة ..انهم يرفضون الاحتلالين الدولي والاقليمي . الشعارات تؤكد ذلك .. نصبوا السرادق في ساحة التحرير ، واحتلو مبنى من عدة طوابق يقابلها اسموه (جبل احد).. سمع منه صوت شاب يخاطب مكافحة الشغب الذين \اقاموا حواجز على الجسر وتكتلوا خلفها \ :(ابو الدخانيات اطلق واحدة علينا نريد نتسلى)، تقدم شاب الى القوة الامنية صارخا (اطلقوا .. اريد ان اموت)، لابد انه احب الحياة بعمق فلما يأس تقدم بكل اصرار ليتذوق الموت ،اصابوه بذراعه فامسكها شاتما ومزمجرا . في اعلى جبل احد اتى مراهق ببوق يصوت فيه وتسمع صوتا انثونيا يقول ضاحكا < هذا بوق تنبيه للمحتجين >...الفتيات خاصة الطالبات شاركن بالالاف .. فتاة عشرينية انيقة وجميلة .. تصرخ وهي تقود عجلتها (ابو العدس تظن وحدك تسند القناصين ملمحة لرئيس الوزراء الذي اعلن بانه سيوزع لكل عائلة مكرمة كيلو عدس \ .. انا اسند المتظاهرين ، سازودهم ببرميل من شراب الببسي \استخدم لمالعجة المصابين بالدخانيات \، وظهرت توزع النقود على سواق التكتك من شاركوا بالعشرات لنقل الجرحى . (خذ لا تخجل .. وانت تعال ، وهي تركض خلفه لتعطيه مالا ، (هي للوقود) تقول لتسلبهم الخجل ،ضجت مواقع التواصل الاجتماعي بالفديوات التي صورتها ، فخطفوها ، اكرهوها على الاعتراف على برلمانيين بانهم مارسوا الرذيلة معها ، قالو لها (انت ماكير ، فمكيجي وجهك بالطباشير والاقلام لنصورك وانت تسحبين نفسا من النارکيلة).. هكذا اعترفت بعدما افرجوا عنها ،كانوا يقتلون الفتيات والشبان في

الشوارع او امام بيوتهم او يخطفونهم ،كان امهر القناصين يبلغ اهدافه فيتهاوى المحتجون خلسة .. ولكي تتبرأ الدولة من اية مسؤولية وبعدما بلغ عدد القتلى و الاصابات الالوف، صرحوا بان (طرفا ثالثا من استهدف المحتجين).

٢١

في انتظار الاسماك

شتاء حزين ...كنا على الشاطيء في الشهر العاشر نستعد للصيف لموسم الصيد الحقيقي الذي غالبا ما يبدأ في الشهر السابع ...انه استعداد معنوي ..فهو يعني تغيير باسلوب الصيد شراء خيوط النايلون .. الصنارات .. مثبتات البلد \كرات الرصاص ..وغيرها ..كنا ننظر للسماء فلعل رحمة الهية تاتي بالحل .. ان تمطر مطرا غزيرا فيرتفع منسوب المياه وتقل الملوحة فيه ... فتكثر الاسماك التي شحت بدرجة غير مسبوقة .. لقد كنا في العام الماضي نصطاد القليل من اسماك السمتي الكبيرة التي نطلق عليها (امهات) او (الشقرة) او (ام شوارب) نظرا للون او المتحسسات او الحجم .. اما صديقنا ابو هبة الذي يستقر منزويا صامتا اخر الدوبة فقد كان يصطاد كثيرا .. انه يرمي خيوط البلد بعيدا ، يثبت قرب طرفها كرة عجين ، وينتظر فان علقت يسحبها بمهارة دون فرحة ضاجة جاذبة .

ابو هبة ، الجسم الرياضي وهيبة الصمت وانضباط الحركة كل ما يحتاجه ابو هبة هو كوكبتان تعلو كتفيه ، كان القيصر يرى فيه مثالا لشخص مؤهل ليكون ضابطا عراقيا ، الا انه يعاني من بطالة وثلاثة افواه تنتظر الطعام ،فيما بعد علم بانه يعمل عطارا في السوق القديمة ،دكان مزدحم بالسلع حتى لم يتبقى الا متر يتحرك فيه من الثامنة صباحا حتى الثامنة ليلا ..(مهما بذلت من جهد

وابديت من اخلاص فصاحب المحل لن يرضى عنك وكانه يملكك.. ساحاول الانتقال منه لمحل اخر)..قال ذلك للقيصر حين لمحه مارا في السوق مصادفة ..وادرك القيصر بان ابو هبة يقضي يومه في زنزانة ملونة تخنقه السلع .. حياة تتفت في مساحة متر ورغم السيل البشري والروائح المتداخلة التي تصدر من البخور والكمون والحناء والكاري ومعلبات الدهون الهندية وغيرها من مئات السلع فان الملل يخنق الروح ،(كيف لديكم الصيد؟)

- لا شيء ..انجماد ..لقد غادر اكثر الصيادين الشط لشحة الاسماك ، مضى ذلك الزمان الجميل حيث كنت منزويا اخر الدوبة وتقنص الاسماك الكبيرة الكارب بصمت... اتى زمن القحط .

- كنت استخدم صنارة كبيرة وارمي خيط البلد بعيدا .. ذات يوم بعدما غادرت مكانكم واعتدت اصطاد من اعلى الجسر واقفا اختنقت في صباح ثقيل وضاقت الدنيا بعيني فما قصدت العمل .. اخذت عدتي وقصدت الجسر مهموما وثقيل الروح ومختنقا ،وفي ثالث رمية صدت سمتية كبيرة تعاملت معها بخبرة ، امد لها الخيط ان سحبت واسحبه ان تعبت حتى ظهرت على سطح الماء .. ولم يكن احد ممن يمتلكون شبكة مع خيط طويل لسحب الاسماك من النهر المنخفض فقلت لصياد جواري < امسك البكرة وسارفع السمكة ، ان فلتت فهي غير مقسومة ، هكذا خلصتها من الامواج ومضيت منتشيا الى المنزل)

ابو هبة صنف تحذر من الاقتراب منه لشدة صمته لكنك بعدما تقترب منه ويطمئن اليك تراه انسانا غاية البساطة والطيبة هو من جيل ظهر بعد السقوط ، حائر يفكر كيف يكوّن مستقبله امام وحش البطالة والفراغ المرير ،جيل افزعته الصدمة ،وهزه نزيف القلق، نحن في العام الثاني مذ انتقلنا هنا ، العام الثاني من الصيد بهذه

الرقعة من النهر .. كنا في العام الماضي نحمل الصغار لنجتاز فرعا ترابيا غمر بالماء ..قيل انهارت سدود بايران وتركيا وانفجرت بحيرات فتدفق سمكها الينا كان العام الماضي غنيا وموسم صيد قلما يتكرر ..لم يكن القيصر متحمسا للاشتراك بالانتفاضة ، لقد ادرك بحكم خبرة بالتاريخ ان الوقت مبكر على حقبة اخرى ، وان عوامل دولية واقليمية تتحكم بمصير البلد ... لا يكفي ان يبلغ الناس قمة التذمر فيندلعوا في الشوارع لاحداث التغيير ،لا تكفي الشجاعة والتصميم ...لا يتمكن الاحصاء والرصد الدقيق من احداث التحول ، فللتاريخ احكامه وقوانينه ، وللحقب حتميتها ... كان حقا شتاء حزينا .. ونحن في انتظار الموسم بعد ثمانية اشهر.. ربما تحدث معجزة .. لكن الصياد لا يتمكن من هجر النهر وصناراته رغم كل الظروف ..

في ذلك الصباح الشتائي قصدت النهر .. الغيم يقطر ..الطبيعة تتنفس بصعوبة ، الشمس تظهر وتتوارى ..الاسماك نهمة لحظات المطر ذلك ما تعلمناه بحكم الخبرة .. رميت البلد فعلقت سمكة كبيرة ثم تلتها اخرى ..واهس .. لا احد يعرف فرحة الصياد ان علقت بصنارته سمكة او شويت وتربع يلتهم ..اشتد المطر فسحبت الخيوط وعدت للمنزل ..بعد نصف اشرقت وازدهرت الطبيعة فعدت للشط مع حفيدي .. اصطدت جرية كبيرة الحجم فافلتها من الصنارة بصعوبة .. فقالت السماء اين تفرون .. امطرت بغزارة .. فهبطنا الدوبة مسرعين وعدنا على الوحل متراكضين .. غطست النعل بالوحل فتركناها .. وتقافزنا حفاة ... كان عمال بناء بالمبنى المقابل قد رصدوني حين عدت اول مرة وهم الان يضحكون (لماذا عدت .. خدعك طلوع الشمس ..).

غالبا كان الصياد قيصريقصد النهر فجرا في جو متثلج ..وقد غادر الدفيء الى الامواج المتلاطة حيث تهاجمه رعشة البرد.. تتناثر الامواج الفضية تتدافع في بعضها تقتحم صخور الضفة ..انه حساس من البرودة لهذا يعتمر قبعة رمادية وملابس كثيرة وقمصلة مطرية .. يرمي البلد وصناراته وينتظر ..وقال ديران وهو صاحب قناة صيد في اليوتيوب (عليكم ان ترموا الصنارات بعيدا عن موقعكم وان تكون العجينة المفورة ليّنة في الشتاء).. ديران الطيب المجنون بالصيد.. من شمال البصرة يقطع مسافات طويله في الازقة الطافحة بمياه الامطار ويغطس حتى اعلى الركبتين ليصل زورقه مع زميله الفكاهي محمود فيستقر بزورقه وسط النهر تحت جسر خالد ... محمود في مرة وهو في الزورق مع ديران دفعه زميلهم الثالث الغواص فتهاوى في برودة الماء صارخا (لقد خرّبت هاتفي).. وكان ماسكا جواله لحظة السقوط فغضب عليهم وعام بعيدا عنهم من وسط الشط قاصدا الضفة ..وتمكنوا من ارجاعه للزورق بشق الانفس .. فيما بعد اشتروا له هاتفا جديدا ..

٢٢

ابو ايوب لي صرا انه هرب من المشاكل

يستقر على دوبة اعلى من دوبتنا الصارعة ، اتوا بها ووضعوها موازية لموقعنا ما عدا شق موجي بعرض متر، لم يتبق مكان نصطاد فيه الا طرف دوبتنا الايسر وهو لا يتسع لاكثر من ثلاثة صيادين... رآه القيصر وحيدا متلفعا بقمصلة سوداء ، يغطي راسه بقبعة سوداء كسرواله ..صياد محترف وحيد يحني رقبته للماء مركزا على اكثر من (بلد) رمى صناراتها بالماء... سطح الدوبة واسع تخلفت عليه اكياس بلاستيكية سوداء وبقايا عجين مفور وقطع من الورق المقوى يجلس عليها صيادون ، وقناني ماء بلاستيكية واسلاك قاسية ... اجتاز القيصر تلك المعرقلات وسلم على ابو ايوب ..<الاسماك لا تنكر >.. نعم انه موسم سيء...<اراك صبورا >(لا .. بل لدي مشاكل اهرب منها .. قبل ايام قصدت هذا المكان بعد المنتصف وبقيت حتى الرابعة تعبت فنمت على سطح الدوبة حتى اصحاني فجرا احد الصيادين) ...فاجابه القيصر <اتذكر ذلك الصياد المدمن على الجسر الذي اقيم على سلسلة من الدوب .. يتلفنون له ليتغدى فيرفض الذهاب ..كان يصطاد وهو يغالب النعاس لانه اتى منذ الليل .. كنت انبهه حين يميل غافيا نحو النهر .. فيفز خدرا .. في مرة مضى وعاد فزعا \هل رايت وثائقي \ وقبل ان اجيبه عثر عليها وقال قبل ان يختفي <اكثر من مرة تهاويت للموج لشدة النعاس .. لهذا اضعها جواري >. تحدث ابو ايوب للقيصر (وربك من ثلاث سنوات انا عاطل عن العمل.. معتمدا على المساعدات خاصة بعد انتشار الكورونا..انتم تصيدون ببلد واحد لكنك جالس، جالس فاشمر بلدين او ثلاثة ...كنت التزم مئات الدوانم ، ادير اكثر من بستان قبل الملوحة الفاتكة وتجريف الاراضي .. كنت عسكريا وعدت في اجازة ، قصدت النهر واصدت كطانين خرج ذيلهما من كيس الطحين وحين رآهما والدي تعجب وضرب على كتفي (سبع انت) \ لحظ قيصر

بان ابو ايوب يكرر تلك الحكاية مرات على الصيادين \.. ولّت تلك الايام ..انا افضل من يعمل لفات الكص وحمص بطحينة في البصرة ..فتحت محلا للوجبات السريعة واغلقته .. الاعتماد على العمال يتعب ..

ابو ايوب دائم التنقل .. لا يستقر للصيد في مكان ، وله كثير من المحبين ، يتلفنون له او يقصدونه على الضفة فيمضي ليصطاد معهم في اماكن قصية ..مرة اعاره صديقه زورقا فظهر بعيدا عنا يتوسط الشط ، متحملا لهيب الشمس .. وفي جو عاصف رآه القيصر يجذف جوار الضفة وهو يرتدي دشداشة بلون الكمون ..و يقول (لقد تورطت .. حظي اتى بي) .. كان يضرب بالمجذاف بكل قوته لكن الزورق يجري ببطء..

ابدا يجيب السائلين (نعم صدت ..) حتى لو لم يصد ، ربما روح التفاؤل ..استغرق شهرا يصيد على زورق عاطل صبغ بلون ابيض .. عليك ان تجتازا اسلاكا ومعرقلات لتصله .. بيت يبعد مئتي متر عنه استغل اهله مساحة جواره وزرعوها بنبتات صغيرة .. وهم من منعوا الصيد على ذلك الزورق لكنهم يعرفون ابو ايوب ويحترمونه فلم يمنعه احد ، يحيط بالزورق المرتفع اعشاب وقصب وشجيرات نهرية .. هنا مكث ابو ايوب لاكثر من شهر ... وحيدا متصوفا مع الموج ..ينفث دخان سيجارته ويحدث نفسه .. يصل الصياد الماهر الى درجة لا يحتاج الى انيس او متحدث ..ربما تذكر تلك الحادثة الفريدة التي حدثت في حيه ...قلما في شبابه كانت تجري احداث تترسخ في الذاكرة .. فالسكون والرتابة سمة الريف ..يتوالى الظلام والضياء دون كسوف او خسوف .. بلا هزات اجتماعية .. سعف ومنجل ودلو وانهار ..يحرثون ويبذرون وينتظرون ..الحدث الاهم في حياتهم هو الخدمة الالزامية .. لكن

البنادق والاختلاط لا يغيرهم .. يتسرحون قافزين الى السقي والنوم المبكر..تمر بابو ايوب تلك الذكرى فقد وضع جلة مخضرات فجرا ومضى مشيا الى سوق القضاء ..الطريق الضيق المتعرج كان ترابيا لا يتسع لاكثر من دراجتين هوائيتين .. فرأى امرأة قتيلة مغطاة بعباءة وسط احد البساتين ..وحين تخلت الشمس عن صفرتها وسعى الساعون عثروا عليها وابلغوا الشرطة ... يظهر ان صاحبها صحبها في الليل ، وربما اختلفا فاجهز عليها بالسكين ، او ان القاتل كانت له نية مبيتة ..حدث احد ستعلكه الالسن لربع قرن ، يروى بعدة اساليب ويضاف له او ينقص منه .. هنا يتم العلاج بالاعشاب ويحتمي الناس بالمعوذات (وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون) . ، وهم يتّقون الحسد بالايات (ومن شر غاسق اذا وقب)..ولا يعلقون من الفن على خصاصهم القصبية الا لوحات تثير الفجيعة والدمع (رضيع يذبحه سهم في كربلاء.. او امام مغلول اليدين على جمل في اتجاه الشام .. او مشهدا لخيم تحترق ونساء في الطف فزعات)..وهم يتطلعون الى الشهادة ويدعون الله في الصلوات الخمس ان يبلغوها .. ويتمثلون بقول شاعرهم <وجه الصباح عليّ ليل مظلم .. وربيع ايامي عليّ محرم) ..وهم يفسرون الاحلام ببساطة <فالافعى عدو .. والرؤيا بميت تعني ان يطول عمره).. اما نساؤهم فتخلقن لرضّعهن عدوا مهزوما <دللوول .. عدوك عليل وساكن الجول \الصحراء) .ارواحهم مصهور النكبات لهذا يتصدر اللون الاسود حياتهم. مشفى الحي كله يتركز في مسعف واحد ..سال القيصر ابو ايوب (كيف تسعفون جريحا ؟) اجاب (عجلة واحدة في الحي نقصدها ..)..ابلوا عمرهم في تفسير (ولقد همت به وهم بها ..). في رمضان يسالون رجال الحوزة عن التشريعات المتعلقة بالفراش ...لا تقلقهم مسالة التوحيد ولا صراع الفرق

والمذاهب وربما لم يخطر في بالهم المعتزلة ولا الازارقة .. لكنهم يحفظون معركة الجمل مثل محفوظة مدرسية ..ترسخت معتقداتهم مثل جبل يهزأ من العواصف .قولبتهم البساطة والرضا واختصروا الفلسفة بامثال يتوارثونها ..

٢٣

شتاء صيد حزين

في اخر شهر من ذلك الشتاء الحزين قصد الشط سيف القيصر .. كان الهواء عاصفا والامواج تعول وتتناحر .. السدة الترابية تخلو من البشر والهائمات .. السعفات تتشبث بقوة بجذوعها ... الغيوم تنسج لوحاتها في الافق ..تدرع بقمصلة مطر رمادية وقبعة وسروال شتوي ..وتسلق الدوبة الصارعة ورمى صنارته ..فرأى جرذا يعوم فاندلعت الذاكرة (سياج واطيء وزوجة متوترة بيت مستأجر آيل للسقوط ..الوقت منتصف تموز .. فطل سيف القيصر بعد ضجة الاستغاثة فابصره يقود صغيره من يده وهو يمسك سكينة مطبخ محمرة من الدم .. شباك احدى غرفتيه الجحيم يطل على منزل القيصر ثبتت عليه قاعدة مكيف من تحته يتدفق جرذان بدينات .. القط يكمن لهن لساعة احيانا فاذا هبط جرذ يقنصه من

مساقة ثلاثة امتار.. تسمع صرخة مرتعب وفكّان تقبضان ،قفزة لا تجارى ،

صرخات استغاثة (سااعدوا هذا يذبح زوجته)..كان شاب يرتدي زيا رياضيا يهم الدخول للمنزل ويتراجع في قفزات ..

كان بامكانه ان ينتقل لبيت مجاور الا انه قال للقيصر (هي لا تستطيع ان تتحمل الضياء).. امرأة قصيرة نحيلة جدا، بيضاء ، انجبت له ثلاثة صغار شقر كطيور ذهب ..تنظر منها ابدا عينين محدقتين بفراغ .. قيل اختلفوا على مئتي دولار في تلك الظهيرة الساخطة .. تريدها لدفع ايجار ويحتاجها ليشتري سلعا فيبيعها بسوق الجمعة .. قيل \وهذا غريب \ انه كان يتناول الخمر وتطور فظل يخلط معه حبوب الكبسلة ..بقي البيت كائنا غامضا مظلما ومحنطا مغلفا بقبضة الصمت والدم .. مدة اسبوعين حتى وصل اهلها ونقلوا منه شبه الاثاث ..

٢٤

نهركارون

عسّكر فوج الكمندوز لسيف القيصر في قضاء الفاو وسط البساتين .

يصحيك القصف فجرا ..بعد اسابيع انتقل القيصر ضمن فريق الاعاشة الى منطقة قرب الشلامجة تحاذي الحدود على ضفة نهر صغير .. ليلا يحتسي الخمر مع جندي صديق ويتناولون معلبات

اللحم والاسماك التي تكدست قربهم ، فيما تقدمت البرمائيات واجتازت نهر الكارون .. هناك في مطلع البرد جلس وحيدا في النهار ليصطاد بالشص .. شعاره (لا جلسة صيد تخلو من اقتناء اسماك)..وانتقلت الاعاشة بعد ذلك الى الضفة الاخرى للكارون .. فوجه يتقدم الى بهمشير .. طوفان الدم والنهب والرعب تتضخم ..لكن قيصر يخيم جوار نهر الكارون .. الاسماك الضخمة طافية قتلى ..فيقتني شصا من احدى القرى وصادف ان هوت جرادة صفراء قربه بعدما استقر فامسكها والقم بها صنارة .. لحظات فعلقت سمكة كبيرة فاخذها مبتهجا الى جنود المطبخ وهي تهتز معلقة ..فليتناحر المتناحرون انها اعادة تدوير للبطولات ... قرون من البطولات والحروب .. الصيد بطولة اخرى .. كمين للتوتر والمزعجات .. ساعات نقاهة من الدوي اليومي .. كان الطريق يستغرق ساعات الى ابعد النقاط التي تمركزت فيها سريته في بهمشير .. تقله الايفا ويتقدم في الظلام فيمسك بقضبانها من الاعلى بكل قوة فيما يضغط بسطاله على ارضيتها .. وسط زمجرة القصف والظلمة ..صديقه قال < اثناء الطريق اشغل نفسي باكل التفاح عن الرعب > ..هناك يتحول الانسان الى كائن غريزي مهمته ان يطور البلادة وان يقتل او ينجو ..

٢٥

هياء

عينان عسليتان .نهد خمري ، قبضة كف،مكور ومنتفض ،عشرون عاما مضت منذ تعرف عليها ،دار ت به وبها عجلات الزمن ،لم تترك لونا من اسلحة الارادة الا وجربته لمقاومة الانهيار ،وحيدة هي الان في قرية قصية بالجنوب .. بلبل في قفص وقطة جميلة هي ما تبقى من ضجة الاصدقاء والاقرباء ...

مضى على ذلك اكثر من ربع قرن .. مذ رآها يافعة في السابعة عشرة من عمرها .

لم تكن الام تؤمن بالتحلل لكنها ترى ان على الفتاة ان تتبسط مع الرجال لكسب مادي او منفعة ...تساهل وسطي دون تسجيل هفوات او التوغل في كمين .. خدع انثوية لاجل الاصطياد ، بعد وفاة زوجها بحادث دهس تخلى عنها الاهل والاخرون ولم تجن الا منزلا وتقاعدا وبنتها الوحيدة هياء او هي الوحيدة التي نجت من قبضة الموت .

لكن (هياء) لا تتقبل الامر .. عفة مترسخة وتحسس من القذارة وتخوف من سطوة الرجل .. لون غريزي من الاشمئزاز من

العلاقات الحميمية ومشتقاتها : (امي تريدني امضي بالطريق الخطأ ، ذلك سر ازمتي) هكذا اخبرت القيصر الذي يكبرها بعشرة اعوام ، ذات يوم سحرت القيصر فابتكر لها كل الكمائن فخسر معاركه معها واحدة تلو الاخرى ..نجت من قبضته الماهرة باقتدار ...ولكنه مبكرا علم بان لا امرأة تتمكن من الافلات من رجل مصر، اخبرته بذلك زميلة له ..فكان تقريرها منهجا وقاعدة رياضية لا تقبل النقض ..ودعم ذلك ما قرأها برواية الجريمة والعقاب (اية امرأة اخضعها لارادتي بالنفاق والمجاراة) ...ترسخت فكرة بطل دستوفسكي عميقا في وجدانه ولم ينتبه او لم يتمكن من التوقف عن الشق الثاني \ المفند \ من الحوار حيث اجاب البطل (ان عصت فتاة علي فسانتحر) .. حقا انتحر في النهاية ...

انتقل القيصر لمحافظة اخرى وتناسى مؤقتا هياء .. انشغل بالرسم والصيد رغم انه لشهرين لم يصد على الفرات الا انه كان يقصده لساعتين صبحا ومثلها في العصر فيعود غروبا مزدحما بالفراغ ... فيمسك ريشته حتى الفجر ..

في غمرة هذا الانهماك واليأس ، وصلته رسالة عن طريق صديق جار.. كان ذلك ضحى الخميس .. (هل نسيت .. عاجلا تعود للبصرة .. انتظرك .. هياء .).

بعد وجبة الظهر قصد القيصر محطة القطار القريبة من منزله وتوجه الى البصرة .

(عليك تصحيني في المنتصف) .. وبقي يتلظى فلما بلغت الحادية عشرة ونصف .. قصد الساعة الجدارية وحرك عقاربها .. وناداها بشبه همس فامها جوارها .. وقصد الغرفة الاخرى ينتظر ..رآها تخطو بتثاقل ملامسة ارنبة انفها يلتف على بشرتها الحنطية

ثوب مزهر يضيق صدرا والخاصرة ورغم ضعف الضوء التقط صبي حياء يعوم بعينيها السوداوين الواسعتين ، لم يكن لمسها متعذرا فطالما تمددت على بطنها ودعته لمساج على توتر ظهرها ...وطالما قطف لمسات وضغطات من الرمانتين .. لكنها ستاتيه الليلة كلها .. استعداد جسدي دافق ولّده الهجر والبعد والفراغ .

جاءت وقطرات الماء لم تجف تماما ، كان جسدها يفرز عطرا انثويا اخاذا ،وبعد لحظات بدأ بتنشق الازهار النعمانية التي تبعثرت على ثوبها ..هي الان في قبضته وعليه استخدام مهارته ليسكن فيها الارتعاد ..يهيئها لاول ملحمة ستخوضها ... عميقا في وجدان كليهما ستنحت هذه الليلة ..التاريخ يستعد .. الزمن سيخلد ..الذاكرة في اعلى درجات التأهب لتلتقط هذه الذكرى وتخزنها للابد ..

وعلت تاوهات منها ، فقالت الام من ظلام غرفتها

(هيا ما بك) هي تعرف تماما ما بها .. وهي فرحة لها فلم يكن النداء الا رسالة اطمئنان .

في الصباح فاجأته : (ما حدث الليلة الماضية كان خطأ لن يتكرر) ...اعلنت بتوتر وهي خفيضة العيون .

(كان خطأ)،فكرة غامضة صادمة ..استغرق عشر سنوات ليفكك شفرتها ..ليلة عاشتها في غاية الذوبان والسحر الروحي فكيف كان خطأ ..وادرك انه يحتاج الى علم حفريات الروح وانواع الطبقات الروحية ليتفهم ما وراء ذلك ...لكن فرويد بكل كفاءته التحليلية استغرق وقتا ليتفهم الغاز حلم مر في وجدان مريضته المصابة بالهسترا ..فقد حلمت انها تنحر كلبا ..

بعد جلسات ادرك بان الكلب الاحمر هو عمتها لانها اطلقت عليها هذا الوصف في طفولتها.

لكن ذلك جرى منذ اكثر من ربع قرن .اما الان فهياء وحيدة في قرية قصية بالجنوب ..

وحيدة في قرية قصية بالجنوب ..

يتذكر جيد اول لقاء معها في تلك القرية الجنوبية ، كانت عيناها العسليتان دافقتين بالحياء كانت تنظر اليه مبتسمة تحاول السيطرة على خجلها .. هي الان امراة وحيدة تماما.

،،،ـــــــــــ

(لا تقبروني في عزلتي : الحل ليس حلا)

ان كنت انفصلت منه وجفت محفظتي و ماتت صغيرتي وامي وابي واخي فلا يعني ذلك انني ساتقبل قبري...ها اني اقاوم موتي الروحي بكل ما املك من اعصار الاصرار والتمرد .الم تسمعوا بي انا هياء (عسل العيون) اتركهم يضرمون رغبة من عطر ظلي . انا المتأوهة بصمت الوحيدة كرب لم يكتشفه احد ومثل انجيل في مطبخ ليهودية ملحدة.عروض قدمت بمئات الصفحات والاف الاغراءات لادخل حمام الاوساخ ويلكم عسل العيون تقابل عروضكم بحذائها الجلدي القديم ... ((ب الكالة)هل تعتقدون باني تأقلمت في منزلي مع الوحدة ... انا مع كل حركة لعقرب الساعة اشتعل والملم رمادي واعيد تشكيل كياني وعزلتي .ادري انا الطفح الجلدي الذي تطفل في حياتكم ... مثلي خلقت للمذلة لحياة الفاقة لكني طورت موهبة الكبرياء وسحقت غروركم .

خروف صغير ، ارنب ابيض وديع ، دجاجة وديك ،بطة قزمة صينية بلون الحليب،(ليس حلا ... منها ما هلك او مرض او امسى يثير السأم فمنح كهدية ..)...

وتمددت على ظهرها وفكرت (عود ستنعشني اوتاره ..... وكان ... وبعد شهرين حطمته على عتبة غرفتها)..

هل شكلني الرب من القلق من سورة موحلة من عظام لطائر هائم خرافي .. ارى لا شيء يسكّن اضطرابي ... اسمعهم يتغزلون <خمرية وتساوي ذهبا ... الزئبق الوامض في عسل عينيها و..و..>

برقت في ذهنها فكرة ذلك الصباح الربيعي .. عادت مثقلة بالمكياج والعطر قبل ان تخوض فشل الزفاف .. غمزت له كاشارة بانها تتحول زانية .. بعد لحظات سلخت روحها الجديدة منها وعادت لنفسها ... فخلعت بالماء المبيضات وما شابه ونظرت بعيدا وهي واقفة في باب الغرفة وقالت (لم تنجح الاشياء).(ليس حلا)

بعد خمسة عشر عاما ..في الضحى حملت قصبات ومكانس..وبحثت عن البريعصي وبيوت العنكبوت وبين همسات وصرخات وضحكات واشمئزاز وكر وفر قتلت ساعة وهما تبحث وتطارد من زاوية لاخرى ومن ظل لعتمة لاضاءة وبين وقفة وقفزة وركضة وكمائن ونصر وانهزام انقضت الساعة (وماذا بعد) قالت الام عسل العيون واضافت (ليس حلا).

ها انا اطور موهبة ملصّقة (قارئة فنجان او كف او مستقبل) ليس صعبا ان اجمع الوانا من الخرز والحصى وصغار المحار وحبات مسبحة اضمها كلها في طبك فاطشها لاحدى المتورطات او المطلقات او المتاخرات او المستعجلات الزواج او الزعلانات في

بيوتهن او لمن عشقت وعصا عليها .. ويظهر انها بدأت كهواية وانتهت كاحتراف بدأت تسلية وتحولت مصدر رزق كانت كذبة فالبستها ثوب الحقيقة واتقنت اللعبة (حتى انا نفسي صدقت وهمي وكذبي .. لكني لا اعمل لاشياء سيئة فيها غضب الله...وها هي تأتي لترى طالعها ان لها سبعة من العاشقين) :

ـ وماذا تريد

ـ تريد ان تقيد اكثرهم غنى وتجعله يعبدها .. هههه

لكن قراءة الطالع (ليس حلا)... كل من تاتي تحتاج تكلمها شهورا وتسكّنها بكلمات لا تنتهي فتستهلك اعصابك ونبضك مقابل مبلغ زهيد (ليس حلا).

تزوجت منه مرتين كلها فشلت.. من قيدني حد العبودية ومن منحني اقصى حريتي .. من انا ؟ هل بي الخلل او القدر او هم ؟ اظل صافية وديعة مع كل الزوج حتى يدمر اعصابي ويستهلك صحتي ... لقد حطموني انا الان (الضغط والسكر والفقرات والصداع الابدي وضعف البصر) ماذا تبقى مني .... هجرت الجيران وعلاقات الطفولة والمدرسة والمراهقة واصحاب وصديقات مرحلة النضج ... وحدي ... ليلا اكسسر كؤوس الزجاج واعلكها.. وكلما صدموني آويت لعزلتي اسابيع او شهورا ثم تدفقت اليهم والى الحياة .. لا اريد ان ابقى هامشية او جثة انيقة تتحرك ..عسل العيون خلقت لتتحدى لتنهمر لتعيش ...لكن الزواج (ليس حلا).

قد يأتي صديق وفي وقد يكون عاشقا حقيقيا ... نستغرق ساعتين حوارا وفكاهة وبحثا في تحولات الاخلاق ثم يمضي فتعود انياب

الوحدة تمزقني امسك عباءتي وامضي لعائلة صاخبة... بؤرة لازمات ...الصديق العاشق وهنّ (ليس حلا).

٢٦

ضحى

لم يتوقع سيف القيصر انه سيلتقي في هذه الغرفة الطينية بضحى . لقد اكتملت انوثتها ونضح اللون الخمري والعيون الواسعة باغراء الانوثة انها الان شابة قوية الجسد ، ناضجة ومهيأة للغوص في نهر التأوهات ،ولم يدرك هل ترسخت في ذاكرتها تلك اللمسات العفوية وقت تتلاقى الايادي في صفيحة الجص ايام عجنه لطوب الثقيل او لان امه المتساهلة التي تصحبها قاصدة بعض الرجال من بقالين موهوبين بالقنص او سواق العجلات او بائعي الاقمشة والادوات المنزلية حين تختفي الاسباب تدفق الاختمالات وينتعش التفسير ،كانا وحدهما في تلك الغرفة التي شيدها ... التي حاولت بنت خالتها ان تجعلها انيقة مزودة جدرانها بلوحات من الدرجة العاشرة وايات كتفت بخط الثلث وابيات ترحم وادعية وكانت انصاف جذوع النخل مسودة مثلما صبغوها بالدهن الاسود بعد تنقيعها لايام في النهر وعلى الجدران المطلية بالجص حرة تتنقل الزواحف وفي الارضية يسعى النمل وتتقافز الفئران احيانا .. حدق في الجسد الخمري الناضج وبكرتين اجتازتا كل مراحل الامتحانات وتفوقا بدرجات النضج ولحجمهما انحنيا قليلا صارختين من عبأ الحلمتين ...

ـ كيف الفتيات ببلاد فارس

ـ متحررات .. الحجاب غطاء

ـ هل المتعة مشاعة حقا هناك

ـ نعم .. امر بسيط وطبيغي

فتشجع وهو يرى انها تجيبة بغاية العفوية

ـ هل تؤمنين انت بالمتعة

ـ امر شرعي لا غبار عليه ولا خجل منه

ـ لو عرض عليك توافقين

ـ نعم

ـ اعرض عليك اذن الان

وبلا تفكير وافقت وبلا ترددت تلت الصيغة فاصبحا زوجين بلحظات..

عانقها فتفاعلت وغار في جسده فانّت ....وبعدما برد الميدان ارادا فتح الباب الخشبي القديم والثقيل فتعذر عليهما حاولاا معا فعصى ان يفتح عشر دقائق ثقيلة من المحاولات غير المجدية

فنظرها (السماء تريد ان نكمل المعركة ولكنهم قد ياتون) اجابته مبتسمة ،(نحن نعمل مصائب وننسبها للرب)..فدعوا صغار قريبتها الذين كانوا يعبثون في الحوش على التراب < ادفعوا الباب > فحاولوا عبثا وهم يتضاحكون .. الباب عصي ... < اسمعي قفي وراء زاوية الباب وانا وراءك فان داهمنا احد فسيراك تحاولين فتح الباب >..

هذه ليست عسل العيون

قريبا منهم على ضفة نهير وصلت امراة ثلاثينية قصيرة بيضاء تتلفع بعباءة حائلة ، نظرت لاحفادها شبه العراة وقالت (صخّم الله وجهك نحمد الله انهم اولاد والا لكانت فضيحة ، لا احد منهم يرتدي لباسا داخلي)..كانت تعني بنتها التي هجرت زوجها من شدة الفقر وسكنت معها ..لا يبعد بيت الفتاة عن اهلها كثيرا .. البيت الذي يرشح منه الماء تحت طرقات المطر ويطفح بسلع من بقايا

مزبلة .. اغلب صغارها حبلت بهم بعد نومات مع زوجها في الترع الجافة على بساط عتيق في ليالي الصيف الجنوبية وكلما عادت لبيت زوجها حاصرها الجوع فتعود متسارعة الى الترع المتحجرة القاع حيث تتدفق النشوة تحت ارتعاش السعفات .. ولم يكن زوجها يعاني ان هجرت منزل اهله فالجسد الغض طوع يده وفم الاطفال تتكفله الام الصابرة في ظلمة الليالي وصوت الكلاب ..ربما يرى بالتصاقه بزوجته الفتية في تلك الترعة لذة المغامر بالاكتشاف ..ولا يمكن ان ينسى فزعه في تلك الليلة ، فبعد ان تمدد البياض الذي لا يراه في خفوت القمر ، على بساط عتيق ضاع لونه الرماني وخيوطه المتقطعة ، وأنّت تحت جسده الحديدي ،احس بحجر يتحرك تحت يده فنهض وطوى البساط ، كانت سلحفاة قد تسللت قبلهما وتحركت .

ثلاثة اشهر مضت على حادث السد الجسدي حين تعرف ثم نضجت العلاقة بين القيصر وصبران..فحدثه عنها ، كيف انه رآها مصادفة وعلقت في وجدانه عميقا .. وشرع برسم خططا لاصطيادها ..لشهرين وقف ساعات تحت شمس تموز الغاضبة بدرجة حرارة تتجاوز الخمسين لكي يراها .. تحمل المطر الغزير ..وكان حين يمر على بوابة البستان يصيح بصوت مرتفع على شخص وهمي لعلها تسمعه وتحس به ...التزم بسعر زهيد جني الرطب في البستان المقابل لعلها تراه وهو يتسلق النخلات المرتفعة ..قالت حفيدة ابو ناصر لصديقتها (الا تعتقدين معي بان صبران يحب مخلصا .. لا يعقل ان يقف في انتظار نظرتي ساعات تحت جمر الشمس الا وقد فتنته ..).

قال للقيصر (لم افض بكارتها .. كنت حذرا .. بعد اسبوع اعلنت استعدادها فانمتها على عشب ندي ..واصبحت في الجيب)

(هل تدري بان اختها نغم قد علمت منها بالحكاية ..فتمنت .. علمت ذلك فيما بعد).

(كان عليّ ابتكار حيل لافصل نغم عن اختها .. ان اقنعها بضرورة السر وان تتقن الخطط كي نتحاشى التصادم ، انها ١٦عاما وبحاجة لترويض لتتقن اللعبة ،).

كان الشاب صمد دميما يعاني من محنة التأتأة وجحوظ العينين ، وبشرة بلون الصيان .. ظل اشهرا يرصد تحركات صبران وملاحقته حفيدة ابو ناصر ..فطلب منه ان يتجنب البستان وان لا يتوقف تحت ظل السد ... فلما رآه لا يستجيب ، كمن له ذات غروب خلف نخلة واجهز على راسه بعصا غليضة وفر ..

الحاج سلمان \شتاء حزين

كان سيف القيصر يهاتف السلمان كل مساء غالبا في التاسعة .الذي حدثه عن ايام الصيد في ايران بعدما هجّروا اليها واستوطنوا في ديسفول بايران (كنا نقطع مسافة ساعة في سيارة ونكمل مشيا حتى نصل نهرا يجري في غابة كثيفة .. هنالك هم متشددون في ايام المنع فيطاردون الصيادين بالدراجات النارية ويكمنون لهم .. وحين يعلمون باننا عراقيون مهجّرون يكتفون بتنبيهنا فان صادفونا بيوم اخر يصادرون صيدنا وعدد الصيد .. ذات يوم طلبت مني الحاجة زوجتي ان اشتري سمكا .. قصدت النهر مبكرا وخلال اقل من ساعة اصطدت ثلاث سمكات كبيرات الحجم وعدت اليهم السابعة صباحا ، قبل ان يقصد ابني موقع العمل فقال لي (عدت مبكرا) فقدمت له الاسماك فقال مع زوجتي < ما شاء الله .. نعمة ورزق وفير > ..

مرة كنت اصطاد هناك ورأيت قرويين يقودون قطيعهم ، يقطعون لها اغصان الاشجار فسحبت بلدي قبل ان يصلوا وعدت ...غالبا اتجنب صخب الاخرين وفضولهم .. الصياد يحتاج الهدوء والانفراد احيانا .

ــ لكن الاسماك لا تاكل من طعمنا هذه الايام .

ــ (انه رزق مسدود ... ربك ان راى طغيان البشر يمنع الرزق \ لنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين \ ذلك ما قاله الله في كتابه .من اين ياتي الرزق وهؤلاء يرمون بالسم للاسماك وينشرون شباكا بلا حدود ، كأن واحدهم يريد صيد كل الاسماك .. لا قناعة لديهم

هؤلاء الذين ياتون للصيد من شمال البصرة .. هل رايتهم ياتون بثلاث زوارق متجاورة وفي كل زورق ثلاث شباك كانهم يريدون ان يستولوا على كل الثروة السمكية ..).

تقول : رزق

ـ نعم ندتثدصور مرة في ذلك النهر الذي تسوره اشجار كثيفة اصطاد ابني ٣٦ سمكة وانا لم اصد واحدة فقال < ارمي بلدك قربي > فرميته بعد تردد ... ايضا ولا سمكة .. الصيد مكر لكنه رزق محتم

ـ اسمعت بذلك الرجل الذي صيّر من زورق مصنعا لانتاج علف لبحيرات الاسماك انه يستخدم صغار الاسماك \ غالبا ما طفح من السم \.. حين قبضوا عليه وجدوا منزلا له يزدحم بمئات الاطنان من الاعلاف المصنعة .

٢٨

الصياد حمدي

ذات يوم اتى اليهما الصياد حمدي يدعي انه خبير صيد رغم اكتشاف ادعائه حينما اصطاد سمكة صغيرة وتعامل معها كما يفعل الصيادون بالصيد الثقيل \ سحب وارخاء للخيط \. قال < هنا انتم تستقرون لتوفر صيد وفير> .. لم يكن صيدا وفيرا وانما وهمه كان ذلك ..كان ذلك قبل ان يعتزل الصيد ويتحول بقالا على منعطف باحدى القرى ، مصادفة رآه القيصر يوما وقال له (هذه الايام لا صيد) فاجابه بتوتر كمن يعد الصيد لعنة وبطرا (عساها ما تاكل) .. هي عبارة قريبة لاخر جملة اطلقها محمود قريب ابو رافد من اعلى الدوبة وهو يلف خيطه ويبرز غضونه (لن اعود .. يكفي ان اظل مادا يدي ماسكا خيط الصيد كشحاذ) .. واختفى من الشط لسنتين ..جيل يرى في هوايات حلا لانها تقتل الوقت ثم يصدمه احساسه باللاجدوى فيكفر بها .نفس الشعور احتوى رجل كان يعمل في محل تصنيع الكرزات في المنطقة الصناعية .. يصل الدوبة قبيل الفجر ويرمي خيطه بعيدا مع طعم عجين كروي كبير قاصدا صيد الكارب بحجم ثلاث كيلوات واكثر ...بعد شهرين قال للقيصر لحظة وصوله الدوبة ، بدقائق حقبلك صدتها لاول مرة

اليوم لكني فقدتها> ، فاكمل شاكر البدين (خلّصتها بالشبكة من النهر الا انها لثقلها كسرت ذراع الشبكة وعادت للماء).. بعدها اختفى من الشط هذا الرجل الصبور للابد .وغاب الرجل الاشيب ، لم يكن كبير السن لكنه من فعل الصدمات والفاقة ..صباحا ياتي بعد ساعات يبدا بطلب الطعم العجين من الصيادين ولا يمضي لمنزله رغم ان الشمس تطغي بعد العاشرة ولا ظل .. ويجتاز الساعات الصاهرة على الدوبة بدرجة حرارة تتجاوز اثنتين وخمسين اجاب القيصر (لدي خبز وخيار فاتغدى او اقصد صديقا قريبا فاعود بعد الغداء لديه).. ترى أي ظروف عائلية شرّدته واي مصير .. ولان للصياد اخلاق صيد فلا يبخل احد عليه بالعجين المفوّر الا رجل تجاوز الستين كان يؤنبه ويحرض عليه (لا تعطوه عجينا فقد تعود الكدية ، الطلب طبعه) فقال له قيصر < لكنه عجين لا يساوي شيئا ولست تخسر) .. فرد محتدما <هؤلاء يشحذون فلا نشجعهم .. ياتون للصيد بلا طعم فيعتمدون على الاخرين > .

ولم يعد للشط عباس الرجل الاربعيني (بعت سيارتي وناكل من نقودها .. تلك قصتي بصراحة).. كان القيصر لا يرتاح لوجوده .. وليس هنالك تفسير.. السيد الضخم الطيب الذي يقدم صبحا الجبن والحلوى لاحفاد القيصر .. الذي يقرب من ابو ايوب .. ينقله للشط بعجلته ... ويقاوم معه هطول المطر وهما يصيدان بلا ستر .. اختفى بعدما دهست سيارته عجلة فمات ..

ابو مسلم الذي حياه القيصر قبيل الشروق فاجاب ببرود وصمت فتجاوزه .. في اليوم الاخر قدم اعتذاره (انا لا اتكلم اثناء الصيد والعمل .. لهذا لم اكلمك قبيل الشروق امس).. من سنة لم يشاهد على الدوبة .. لاسباب مجهولة اختفى ...

حينما انتهى الشاء الحزين وبدأ المنع للصيادين منذ منتصف الشهر الثاني قلنا ربما يكون موسم صيد وفير

لكن لا سمك فقط ذلك النوع من الاسماك المتوحشة النهمة السيئة الطعم التي تكثر في نيل مصر < البلطي > .. ولوحظ ان اصحاب الشباك بدؤوا ينقرضون .. فهذا جارنا رجل ستيني ياتي مستصحبا ابنه وينصب الشباك الى الفجر وحين يعود لا يرى الا سمكة صغيرة واحدة ... ورغم ان الصياد < >قد جمع تبرعات واشترى الف سمكتية اصبعية وانزلها في نهر جوار الدوبة الصارعة، الا ان الشط ظل يخلو من الاسماك ولم تظهر تلك الاسماك التي تتوالى برجّ الماء حيث تطفو لتنقي نفسها من الطحالب او لنقص الاوكسجين او لسبب علمي لا نفهمه .. قيل في هذا الشهر حتى الشهر السابع لا تتناول اسماك الكارب الطعام لانها تهرب مع وصول الصبور من الخليج وكلما انقضى شهر بلا صيد قلنا في الشهر القادم وننحر الايام بلا صيد ..في فجر ما تعرف القيصر على صياد وقور يسمونه الشيخ كان يقصد الدوبة الصارعة فجرا ويصيد بصمت مصغيا للترتيل من الهاتف في يوم ما علق خيطة وسحبه واقفا متراجعا حتى هوى بفتحة الدوبة المملوءة بالكاز الاسود ومخلفات الحديد كاد يزهق لولا ان انجده بعض الصيادين فاختفى وعاد بعد شهر واختفى ثانية للابد .. واين ابو سمير سائق الكية الذي يقلب المكان هرجا وضحكا وهو يطلق النكات الاباحية والالفاظ الخادشة للحياء .. مرة كاد يفقد احدى عينيه فقد علقت الصنارة باعلى حاجبه ونقل للمشفى .. كان يري القيصر وهما وحدهما صورا لعشيقاته مستمتعا فيما كان القيصر يسحب البلطي ويخلصه من الصنارة وهو يتابعه ...< رخيصات يعتقد انهن صيد لحم لا يبلغه الا المتمرسون >.ابو وسام لم يعد للصيد بسبب يده المعطوبة ولاصابته بجلطة فمنعها اولاده .. ابو < حسين > الذي

سرقوا يوما شبكته وبدلة الصيد المشمعة ... حبس سليته في دولاب الصيد وتوارى بعد يأس رغم اصراره...

٢٩

فلسفتنا

القيصر في صباه كتب الشعر قبل ان يتقن الايقاع .. وعرض قصيدة عمودية عرضها على استاذه فهمشها له < القصيدة من البحر الوافر ولكن بعض ابياتها تخرج من نظام الوزن الى جمال النثر فاقرأ دواوين القدماء والمعاصرين لتكتمل عند سليقة الشعروملكته واعلم بان آلهة الشعر انما اتلفوا الكثير من نتاجاتهم قبل ان يصلوا الى الشهرة >.

بعدها اكمل اول ديوان له فاسماه < ديوان البداية >وظل عشرات العقود يحتفظ به وقد ارسله للتجليد.. كانت المضامين الشعرية فيه زاخرة بتعاليم دينية وحكم وامثال ..

في الصف الاول المتوسط اقتنى كتابا عروضيا وظل يحاول اتقان الوزن فتمكن منه بعد سنة ... كانت القفزة في العطلة الصيفية للثالث المتوسط .. مرحلة عرقلت اسلوبه الحياتي الا ثقافيا فقد توالى التقدم .. وعندما قرا الرد الاسلامي على بافلوف تساءل من هو بافلوف فغاص ليستكشف ودرس قوانينيه التسعة ..واتت بعدها محنة الفلسفة وعلم المنطق< آلة قانونية عند مراعاة شروطها تعصم الفكر من الخطا >.. ودفعه الغرور ليدّرس علم المنطق لهواة في الرابع الاعدادي .

اكتشف فرويد فقرأ كتبه في الهستيريا والتحليل النفسي والاحلام ويعد فرويد اول من عمق لديه حب تحليل الشخصية .. واستمر يقرا المجلدات بعلم الاجتماع والتاريخ وفلسفة العلوم الطبيعية ومئات الروايات والدواوين واللامنتمي وكتب السحر والاقتصاد ... تصور مراهقا يقرا في \كنت\ و راس المال يا لها من فاجعة ...خرافة القراءات وذلك كله يعود الى خجله وقلة معارفه من المثقفين .. لقد عام منفردا والعوم بلا اشرعة قد يقودك الى الساحل بعد خسارة مريرة للسنوات وقد تغطس .وكم اسس مجمعات ورابطات ادبية صغيرة وكم خاض من نقاشات ...واتى عالم اللغة مبكرا فاستوقفته < وبعد لولا غالبا حذف الخبر ..> اذن سيستغرق وقتا بتفسير قوله < لولا ان راى برهان ربه > ، وتصدرت \هم بها \ الصدارة .. وليس ذلك الاهتمام له وحده فلا يخلو مجلس ديني او مأتم من همت به ..فيما ندر التركيز على < اطلب العلم من المهد الى اللحد ..> بنفس الاهتمام تلي مئات المرات بيت النابغة < سقط النصيف ولم ترد اسقاطه > ، ليس صدفة ان يظل حيا هذا النصيف وغلقّت الابواب وتتراجع الاكتشافات الكبرى والصناعات التي اهتم بها الاخرون فساطونا كما يرغبون ..وبين هذا محق وذلك على باطل نحرنا عبثا الف عام حتى سحقنا هولاكو

واشباهه .... بعد سنة ابحر في مصنفات سارتر وروايات دستوفسكي ... هنا اشتغل التفلسف في المقاهي والمشارب < الحرية هي الرعب > .. < الجحيم هم الاخرون >... كل ما كنا نتداوله من فلسفة سارتر هاتين الجملتين الادبيتين لا وجودية ولا هم يحزنون .لكن رواية الجريمة والعقاب خلقت في القيصر هزة حقيقية لقد كانت كشفا ساطعا لاعماق الانسان انها رواية تزيح الضباب عن الشخصيات .ولان تحليل المراة كان يهمه فان بطله قدم كشفا (اية امراة تتهاوي بالمجاراة والنفاق).. لكن الحياة ستعلمه اشياء اعمق فقد تتعلق بك فتاة من ابتسامة كما حدثته احداهن (انا اعشق ابتسامة الملك حسين) ، او لعنف رجل ، او استسلامه لها وان ثبت ان اللواتي يفضلن الخانعين ، بعد سنوات تشجبهم وتفكر بشخص له شخصية قوية او مركزية.

دعته الضرورات للتعرف على بحار في احد البساتين كان يلتقي به عرّفه عليه حارس مرآب ..مرة زار الحارس فاخبره بان ليلة امس تم اغتصاب فتاة صغيرة في احد الباصات الخشبية الجاثمة واتت امها فانكر انه علم بشيء رغم انه اكتشف الدم في مقاعد الباص .. كان بيت البحار جوار المرآب فقويت العلاقة بينها وترسخت فطلب منه ان يبات في منزله كلما غار في البحر لاسبوعين ...

في ليلة مثلجة تفاجأ سيف القيصر بان امراة من شحوم مكتنزة مبيضة تنام جواره شبه عارية وكان ثملا فلم يفكر كثيرا استدار اليها ومسح على ظهرها والارداف فتاوهت وغاص فيها ... صحت متوردة نشوى في الفجر واعدت له الجبن والبيض والخبز الذي انضجته بتنور الطين ... فتناول عدة صيده ومضى مستغرقا مع تموجات النهر حيث رمى سكارى الليل زجاجاتهم المتنوعة واغلبها من العرق الزرنيخ .واخذ يغني بصوت خفيض <

بتروحلك مشوار .. التله يا ريت ... آلت لكن اوع تغار .. حوالي العشاق كثار .. التله بطلت .. خليني في البيت) وهو يتخيل تصفيق اهل الخشابة وصوت هادر يصيح رافعا يده < شكول السيف خلي السيف يكول .. من يضرب ياخذ عرض بطول > .

في تلك الليلة الشتوية كان القيصر ثملا وهما في ظلام واشتباك فجأة ضرب عليهما اللايت ففزعا كان زوجها قد عاد فجأة من البحرووجدهما متلبسين تحت ازيز المطر ...

جدل

كان عمار ناقدا او يدعي مقدرة نقدية كل يوم ياتي بعشرات الصفحات يقرؤها على القيصر وبعض الادباء هي اشبه ب < ابلع هوا وطلع حكي >.. وان وجد جمال في نص ما فسطور عمار تمسخها

وكان القيصر يخشى احراجه لكن الامر تخطى التحمل فاتى به لمقهى صغير هاديء مصمما ان يهزه فقال عمار < النقد فن لغوي > فاجابه القيصر

ـ فن او علم نحتاج نحدد المصطلحات

ـ (الفن ذاتي والعلم موضوعي) اكمل القيصر

اجاب عمار

< الحقيقة.. >

فاجابه القيصر

ـ وما هو مفهومك للحقيقة ... هنا اتى صاحب المقهى بكؤوس الشاي ورنت الملاعق ... تلكأ عمار عن الاجابة فلم يكن اعتاد مثل هذا الحوار

فاجابه القيصر

ـ ساقدم لك تعاريف عدة منها ((الحقيقة هي مطابقة الفكر للواقع)) ... قال عمار \ منطقيا \ ... فاستوقفه القيصر << قبل ان تكمل ما هو المنطق فهل تمضي مع تعريفه بانه آلة قانونية عند مراعاة شروطها تعصم الفكر من الخطا ... الارسطي المنطق الصوري .. او انت مع المنطق الرياضي لرسل ونظرية الاحتمال ؟!!...

قال القيصر اخيرا

ـ استاذ انت ترى ان بضع كلمات لم نتفق عليها فكيف بك وكل يوم تاتي الينا بجرائد نقدية غامضة .. النقد علم وفن وانا اتفهم رايك هو نسخة من اطروحات الفرنسيين النقدية وهم يسرحون فكرا ولغة ويستمتعون بذلك .

في العشرين من عمره زج القيصر تحت الارض بتهمة قذف السلطة ..كانت له روح ثورية عارمة رغم ان طبعه يجنح للسلام فلم يهتم بالمصهر تحت الارض وكان قد تشّرب بملاحم الصمود للثوريين الخالدين وفي ذهنه رجل ثائر قلعت عينه فقال < ابسط هدية للوطن >..قلع الاظافر وسمل العيون واحكام التابوت على مناضلين ثم شقه بالمنشار لنصفين تعليق النساء عاريات من الاثداء الصعق بالكهرباء احواض التيزاب كانت كل تلك الصور في ذهنه حينما تم اعتقاله لكنه لم يكن يبالي ان له صبر الصياد واصرار الثوار هنا مدرسة لانضاج الفكر والرجولة وهنا ارقى

المثقفين مروا .. وقال فليكن ..بعدها في السجن تدرب على الملاكمة وانشغل بالتحليل النفسي وطلب المتنبي فاتاه بتحقيق البرقوقي بمجلدين وكان هذا ما يحتاجه : قوة البلاغة والفن وروح التمرد < وايا شئت يا طرقي فكوني .. اذاة او نجاة او هلاكا >.

لم يعتزلهم القيصر ويتصوف مع الصيد من بطر او فراغ او عبث كان يريد لروحه ان تسمو ولفكره ان يحلق ان يتحول آلة تصهر المعارف لتستنتج الحقائق والقوانين .

رسم المدرس امراة انحنت رقبتها شاحبة تساند او تستند على رجل نحيل ممزق الروح كانت اشبه بصورة شبحية وقال < انه رسام ابتكر البعد الثالث >.. بعدها باشهر علم بانه العبقري بيكاسو وان اللوحة من المرحلة الزرقاء ...سحرته الالوان وتدرجاتها وغطس في حوض التكعيبية والوحوشية والانطباعية .. ابدا يحس بيكاسو صديقه المقرب يقرا لوحاته وان لم ير عليها توقيعه او شرحا عنها .. لون من التمغنط الروحي يجذبه اليه .

فاقتنى الالوان وشرع برسم لوحات لوجوه نسائية لكنه وجد نفسه يتفاعل بتوتر مع الوجوه فكل نقطة لون تعكس شكلا جديدا فهجر الرسم بعد مئات اللوحات التي ظلت بمستوى ريشة هاو ومحب .فجرب رسم الوجوه والاشكال بالكلمات ربما كان نجيب محفوظ وزقاق المدق وراء ذلك ...غطس في انهر موحلة نتنة حتى تعلم العوم..وظل يخوض متنقلا من تجربة لاخرى ومن هواية لثانية غيرها ...يرونها يمشي متثاقلا للشط منزويا عنهم لكن الصيد استراحة الفارس بعد صخب الميادين تنفس روحي عميق بعد سورات الاختناق .. انه الصياد الامهر سيف القيصر < الصياد الهائم على بساط الامواج الزرق والمخضرة والكحلية والمذهبة غروبا..استقبل فجري قبل ان تصحو الطيور حيث السعفات تضم

اجنحتها وندى الاعشابب يلامس الروح..تشرق بخجل ..فتسكب خيوطها النحاسية ..على جسدي..ثم تنغمر في الامواج عميقا..
(مرددا \وقد اغتدي والطير في وكناتها \ تركت الحراب للضباع..وادركت حركة التاريخ فلا استغرب من الجمود ولا استعجل التغيير..فقد تنام الشعوب دهورا..>.

امتهن التعليم والتنقيح اللغوي فاتاه احدهم < يحييك فلان انا من طرفه فقال له القيصر اخبرتك امس بالسعر فظل يراوغ كانه يواجه بقالا .. وكان القيصر قد عرفهم اصبح متمرسا بتفهم الاقنعة وقرا كل الخدع التي يستخدمونها لم يتبق اصص الا وانكسر على راسه . تخدعهم بساطته فتهزمهم يقظته التي يكتشفونها متاخرين .. يا للمساكين ..\ اشفق على ضفدعيتهم \وبعد مساومات ومراوغات رمى مسودة كتاب ضخم بحجره وقال له مقدما نقدا تافها < خذه ونقح خير لك > فاجابه القيصر < انصرف ووفر مبلغك لاقتناء عجلة >، فقطب ومضى .

لم تكن تلميذته الصغيرة تستجيب للدرس .. اختها بذات الصف تتقدم ، فمضى لامها المستعصمة بالعفة والمتحللة سرا وقال لها (غدا هذه الصغرى ابعثيها لي وحدها)... اتت فسالها عن ظرفها < امي تهتم باختي وانا تعرضني للضرب والشتم كل دقيقة >... هل لديك ما يرعبك < نعم.. مرة اعتليت درجات السلم اثناءها قطع التيار الكهربائي فصرخ اخي صرخة ليرعبني ... من يومها وانا احلم وارى قزما اسود بطول ذراع ذا راس اصلع كبير يطاردني >...قرا ارواح طلابه وحلل رسوماتهم وتفهم رعبهم ومرحهم .. الاطفال عوالم عميقة خلافا لظاهرهم ...

لم تكن نهى في الثاني المتوسط الا رقة وخجلا فان نظرها احمرت وجنتاها .. استغرق ثلاثة ايام ليعودها عليه في البداية كان

يكلمها من خلف شباك الغرفة وهي ترتجف حتى الفته فاستقرت فنجحت ... في العام الثاني اتت لتدرس لم يتمكن من مقاومة انوثتها فقد نضجت سريعا لكن صوتها صار اكثر رقة واغراء .. فنجحت ايضا ومضى كل الى مسعاه وفرقتهم الايام ... بعد ثلاثة اعوام تلقى مكالمة منها وكان انتقل لحي اخر بعيد عنهم (تعال لتدرسني) فاتى كانت مكتملة الانوثة عصية على التجاوز فكل نقطة في جسدها تسيل انوثة .. كان عليه ان يدرس التفاضل والتكامل ويتقنه وهو ما حدث عاد لها بعد اسبوع يتقن تدريسه ..وكان بحيرة وتوتر تحت السيطرة بين الدرس ومقاومة الجمال السيال والصوت الذي يحرك الحجرة .. وكان من طبعها ان ارهقت او اضطربت ان تتعثر الكلمات بحنجرتها وتظهر بحة ساحرة ..بعد شهر من الدرس لانت له والتقيا في بستان صديق ..

في ضحى كارثي كانت عائدة من السوق وراته فعبرت اليه شبه راكضة (كيف حالك سيف ... انا طلقت ..كانت تمسك طفلا بعمر سنتين .. عباءة حائلة وروح رثة خاسرة لم تكن تخبره عن طلاقها كانت كمن تهتف معلنة عن كارثتها ..نساء تنجو من معركة الطلاق باقتدار فتكون اقوى واخريات ينهزمن تماما تشعر انها فقدت حياتها للابد .لكنها بعد ستة اشهر وجدت عملا ، طابعية في مكتب استنساخ .. استعادت شيئا من نظارتها واناقتها .لكن لقاءات البستان لم تستانف ..

كانت مرحلة دينية .. وللمرجعية حضور شعبي واسع فاندفع المئات للدراسات الحوزوية .. البعض منهم يعيدونه لي لينشط لغويا ثم يعود فكان كتاب قطر الندى ..احدهم اسمر البشرة يقضي ساعاته يلطم ويردد اهازيج ولطميات حسينية ويدرب صغيره على ضرب الصدر < حسيين .. حسيين > وكان استاذه قد منحه اجازة

لاسبوعين يكتب خلالها كتاب الاجرومية اللغوي فيعود كان هدف الاستاذ ان يقوي لديه خطه ...ومن خلاله تعرف القيصر على اخيه الاسود البشرة الصامت الهاديء الفضيع الطرفة .. كانت الطائرات الامريكية تمر مزلزلة المنزل وكان لقاؤهما في غرفة في السطح منفردة وفي ذلك الظلام كانا ينظمان شعرا فكاهيا فقال القيصر < يا طلي مايك حمه > فاجابه صاحبه (كوم اسبح وفضها) وضحكا من الاعماق ..فيما يحتل الرعب الجميع ويخرسهم من رعب الطائرات .. بعد سنة انتقوا عنه وسمع انه مضى ليعاتب جارا اعتدى على اخيه الاصغر بسبب شجار على حمامة وكان ذلك الشاب يمسك رشاشا ويكمن فوق السطح ففتح على صاحب القيصر الشاعر النار وارداه قتيلا .

٣١

رثاء النهر

يجري .. يجري ، فلتجر ايها النهر الابدي طافحا بمخلفاتهم وملغّزا بعضها في قاعك ..تتغير عليك الظلال .. تتغير اشكالها كل يوم وانت تتقبل تحولات اغصانها وجذورها ...الرسائل المعطرة الحميمية مطبوعة او مكتوبة بخط يدوي مع زهرات وقلوب حقائب السفر التي تهرات.... درّاجات الصغار الهوائية ، بوقات الجيش ، حبات المشمش التي قاومت قسوة الامواج وشجيرات مشوكة و وشجرالغرب والكالبتوس على ضفافك بدلا من الحمضيات واشجار الرمان والتوت والعاقول والطرطير بدلا من الريحان والفلفل واللوبياء .

اختفى الهدهد من على ضفافك الغربية فتحسر السحرة الباحثون عن عظمه الذي يجري ضد التيار ..وابو الزعر وعرموط القصب والغراب بلون اسود وابيض والطيور الحرة ،ودجاج الماء .والبغيلي الاسود النهم المختص بصيد الاسماك ونعاج الماء الذي يخزن صيده بكيس في رقبته والمهلهل زاهي الالوان بصوته كصوت الهلاهل الذي يبني اعشاشه في شقوق جدران النهر قريبا من الماء .. وكم حطمت قوة الموج سدودك التي كونها حمارون نقلوا الحجر والتراب على ظهورها .

.لقد استقبلت هموم الطلاب وأمالهم وهم يجتازون شرقك أمنين بالعبارة يقصدون الحرم الجامعي مرددين القصيدة الشهيرة < زغيرة وما تعرف اتحب > ويهمسون باخرى اباحية نسجتها طالبة متمردة على غرار < ماذا اقول له لو جاء يسالني .. ان كنت

اكرهه او كنت اهواه >. ومدمدمين < هذا ديداج يا هيلة من غرورج ما صحيتي ... > او (جانت ثيابي علي غرية كبل جيتك ومستاحش من عيوني) ...وكم احتضنت من مناشير تمهد للثورات (ايها الشعب العظيم // ستقوم فئة ثورية طليعية بثورة عارمة تتطيح بالرؤوس العميلة العفنة >..وكم استقبلت بيانات برقم واحد فانتعشت الارواح قبل ان تكتشف بانها ستقضم العاقول والخيبات ..وكم سال اليك دم من حروب الجمال ووقعة الشذا حين تعب الدفانون من قبر تلال الرفات ..توضأ في مياهك الفراهيدي ونظرك البيان والتبيين بعينين جاحظتين وشرب من مائك سيبويه قبل ان يقصد الصحارى ويصغي لبدويتين (يا اختاه لولا العرجون لغسقني الغاسق).. وانشغل على ضفتيك شبان يافعون محاولين فرز الناسخ عن المنسوخ ومفسرين < همت به وهم بها >..

ارى بعمقك صايات الدومينو التي هجرها الاجيال والرقم ٢٧ حيث كان يصرخ احدهم | دنبلت \.. وسروج جياد الريسزوحدواتهم المستقرة في طينك الملوث وبقايا الدلو من الصفيح وبنود الخصوص التي تهشمت ...الرسائل المعطرة الحميمية مطبوعة او مكتوبة بخط يدوي مع زهرات وقلوب حقائب السفر التي تهرأت .. دراجات الصغار..عروق السدر التي كشفها انهارك الصغيرة بعدما غادرها الغرين .. بوقات الجيش حبات المشمش التي قاومت قسوة الامواج .. واين السفن الصغيرة التي تنقل للملكة بالات السوس الذي وضعوه الان على اللائحة الحمراء فهو يحتضر بملوحة الماء .. قصع الجنود من الالمنيوم وزمزمياتهم .. جذور صغيرة وبقايا اغصان تحورت لشبه اقنعة افريقية وآلهة لم يعبدها احد ، اطارات العجلات التي غرقت والمزمجرات التي قصفت واوسمة انواط الشجاعة التي صدئت .. بدلات الاعراس والقلائد التي اغرت ، والان تئن من الصدا.. الاسماك التي نجت وبقيت

الكلابات في خياشيمها ..احذية الغرقى والمنتحرين وانت تجري وتجري غير مبال بها... الافاعى تتصارع في قاعك والديدان المجهرية .... وابو الجنيب وابو العرس والرفراف الذي سقطت منه سمكته و جناحه فابتلعته امواجك

عانيت من بطء الجريان وكثرة الانحناءات والاستدارات وظهور الكثير من الجزر ذات الشكل الطولي في مجراه لضعف قوة التيار على حمل الرواسب الطموية مثل العجيراوية والطويلة والشمشومية وأم الرصاص والبحرية والقطعة وجزيرة الحاج صلبوخ والزيادية والدواسر والأغوات والدويب والمبادرية وماجد والعبيد وشاهينية والمطوعة وأم اليبابي والرميلات والبلجانية والبوارين والصالحية والسندباد .. عانيت من المعاهدت لثلاثة قرون لم تنصفك واحدة منها .. وتلك البقعة ذات العشرة نخلات تحتضر بشكل رمح يتغلغل في النهر قرب ما سمي بالناظم حيث يسبح الصغار صيفا وتمد العوائل بسطها لتشوي الاسماك ..هنا حيث سمعت عويل اب يصرخ فجرا < يا بووية ... ابني .. اريد ابني > وكان ولده قد اتى مع رفاقه وزميلاته فتقدم ومضى لقاع النهر ولم يتمكنوا من انتشاله حتى اتوا بغواص فانتشله منتصف النهار .. اتوا فجرا للاحتفال الذي حوّل ماتما والاب ينوح وانت تصيد وتسمعه ينوح ويصرخ ويستغيث < يا ابني .. ااخ يا ولدي > يشهق : نظرة للسماء واخرى للنهر حيث البقعة الجائرة .ارى آثار المستعمرين على ضفافك ورغم ان اكثرها تهاوى او قضمه الصدأ فقد بقيت معالمها شاخصة تذكرني بهم. وذلك الطوب الذي هزم مدفعهم فهزجوا < الطوب احسن لو مكواري >..التخوم هنا باعماقك واكياس التبغ من القماش وخناجر اللصوص المعكوفة وحبال المشانق للخونة والابرياء .

وانت تجري .. اشم ثياب صقر قريش فيك وقائد الجيش الخرساني وفيك انغمرت حجول الريفيات وملاقطهن والطلاسم غير المتناهية .. وزرقة موجك مما رمى التتر من المصنفات فيك ،، تجري وزي الارمنيات في اعماقك وبنادق الثوار ورماح الزنج وسيوف الازارقة وهم يرمون فيك الاطفال الذين ذبحوا ..و بساطيل الجنود الهنود حين غزاك الانكليز وآلة السيخ التي سرقت فاحتويتها والعملة الفلس الذي توج العانة فترسخت الاهزوجة < عاش الزعيم الزود العانة فلس > وتندمج في مياهك صرخات الثكالى والقتلى من العباسيين اذ استقبلت جماجمهم ..وفيك تدوي خفية خطبة الحجاج وعثوق النخيل التي سرقت من البساتين الامنة وقطع اثواب الصبايا اللواتي تم اغتصابهن بالخداع وحسرات الثوار الذين لم يجنوا الا عيونا كسيرة اخر العمر ...فيك اقام الصابئة طقوسهم ورمت الامهات كربا تعتليها الشموع وما زال موجك يحتفظ باطوار الخشابة في الزوارق < عنابي يا عنابي بخدود الحلييوة >... وتجري مع موجك صرخات جنونهم الخائبة : < يعيش .. يسقط >.. ولم يعش احد في حقيقة الامر وتمكنت من بعضهم المتاحف او مزبلة التاريخ ، اختفت منك المهيلات واللقالق والنوارس والسفن الشراعية والابلام العشارية .. والوان اجمل من الطيور المهاجرة .. وشحت قناني العرق الثقيل الابيض الذي يرتب الجماجم المرهقة ويمنحها خدرا او جنة مؤقتة .. لم يعد اثنان تناولا الحشيشة ومدا ارجلهما لمياهك وبعد يوم صحيا فقال احدهما للاخر < للان لم يات الجزر > متوقعين انهما ناما لساعات لا يوما باكمله ..وصنوج الراقصات وكمان العميان في الملاهي ....ابر الوشم المزرق على الاعناق المصقولة كمرمرحليبي ، التي بانت عروقها الزرق ..ومكاحل الزوجات اليافعات ... وريش دجاج السبت في

طقس اليهود بمعبدهم جوارك .. والصلبان التي تهاوت من ايادي الشقراوات ..

الاسماك كالاخلاق تضطر للهجرة ان تعكرت بيئتها

اشم اعماقك واقرؤك ...

وحدي على ضفتك الثكلى احسك واتهجاك فاقرؤك .. اين هم ؟!تعالوا معي نقيم مأتما لهذا النهر الذي توقعناه خالدا ...تعالوا واحضروا ساعات احتضاره .. لا تكونوا جاحدين لا تتركوني وحيدا اؤبّنه والقي في حضرته قصيدة رثاء .

فهرست

الموضوع	رقم الصفحة
اول صيد	
رياضي وامراة	
اغماء	
الصياد ابو ايوب	
ابو مزهر	
الاصرار على الهش	
السايلو	
الصيد في السيبة	
نهر الرباط	
حمدان	
ضفاف شط العرب	
النهر الصغير	
ابو ايمن	

الصيد شمال البصرة

الفزاعة

الصيد بيك اخطيتك

الحاج ابو سلمان

ابو رافد

رحمتي

انتفاضة تشرين

في انتظار الاسماك

ابو ايوب ليس صبرا بل هرب من المشاكل

شتاء صيد حزين

نهر الكارون

هياء

ضحى

الحاج سلمان شتاء حزين

الصياد حمدي

فلسفتنا

جدل

رثاء نهر